المكتبة التاريخية

الإسلامية

إعداد

د/ صلاح خليل سلام

كلية الآداب ــ جامعة حلوان

بسم الله الرحمن الرحيم

نشأة علم التاريخ عند المسلمين

قام علم التاريخ عند العرب على أسس من الرواية الشفهية، وكانت تنقل الأحاديث من جيل إلى جيل ، وبما يتصل بذلك من مفاخر الأفراد وقبائل العرب وأنسابهم ، ومن هذه الأخبار ما يعرف باسم " أيام العرب" والتى تقص أحاديث الحروب بين القبائل المختلفة . وعلى الرغم مما فى بعض هذه الأخبار من عدم دقة وغموض إلا أنها كان لها تأثير كبير فى نشأة علم التاريخ ، إذ أن ظهور الإسلام لم يقض عليها بل ان المولفين المسلمين فى فجر الإسلام استمدوا منها كثيراً مما دونوه عن بلاد العرب الشمالية قبيل الإسلام .

أما الأخبار التى نعرفها عن بلاد العرب الجنوبية فى المصادر العربية فأن أساسها الرواية الشفهية وليس فيها ما يعتمد على بيانات تاريخية مدونة على الرغم من أن اليمن كانت مقراً لحضارة قديمة ، ولا تكاد هذه الأخبار تتجاوز أسماء بعض الملوك وقصصاً تحمل طابع الخرافة عن العصور التى سبقت القرن الأول قبل الهجرة .

ولكن الدعوة الإسلامية شغلت العرب عن أساطير الأولين وعن أيام العرب وأنسابهم ، وعن أخبار بعض دول اليمن وعن اليهود والنصارى وأخبار

الدول المجاورة للعرب كالروم والفرس والأحباش والسريان والأنبـــاط والهنـــود وغيرهم .أما القرن الأول الهجرى فقد شهد إهتمام المؤرخين بأخبار العـــرب فى العصر الجاهلى والأمم المجاورة لهم ، وممن برزوا فى هذا الميدان وهب بن منبـــه " ت ١١٠ هـــ / ٧٢٨ م "، وعبيد بن شرية .

أما فى العصر الأموى فقد إزداد إهتمام المؤرخين بتدوين الأخبار والســـير فى صحف . ويروى أن عبيد بن شرية ألف لمعاوية بن أبى سفيان كتاب " الملوك وأخبار الماضيين " ، وتشير الروايات إلى أن معاوية كان يستمع كـــل ليلـــة إلى شىء من أخبار العرب والعجم . وكان يأتيه غلمان وكتبه يقومون على حفظـها ويقرأون له مما فيها من سير الملوك وأخبار دولهم .

وقد كان المشتغلون بالأخبار الشفهية عن العرب فى الجاهلية هم الـــرواة والمعنيون بالأنساب . ثم إنضمت إليهم طائفة جديدة من الأدبـــاء والمشـــتغلون باللغة، وظهر من بين هؤلاء محمد بن السائب الكلبى " ت ١٤٦ هـــ / ٧٦٣ م " ، وابنه هشام الكلبى " ت ٢٠٤ هـــ / ٨١٩ م"، وأبى مخلـــف الأســـدى " ١٥٧ هـــ / ٧٧٣ م " ، وسيف بن عمر الكوفى "ت ١٧٠ هـــ / ٧٨٦ م " ، والمدائنى " ت ٢٢٥ هـــ / ٨٣٩ م " ، والزبير بن بكـــار " ت ٢٥٩ هـــ / ٨٦٩ م " وهو من سلالة عبد الله بن الزبير .

وليس من شك فى أن الدين الإسلامى كان له أثر كبير فى إيقاظ العقـــول الجامدة من سباتها وولد فى تيار العقل الإسلامى مجرى جديداً ، و لم يمض القليـــل

حتى بزخ علم التاريخ عند العرب، وفاق المسلمون فى هذا العلم غـــيرهم مـــن الأمم .

وقد عنى المسلمون بحفظ القرآن وأحاديث الرسول ﷺ . أما القرآن فـهو كتاب الله تعالى أنزله لفظاً ومعنى على رسوله محمد ﷺ ، و لم يـــنزل القـــرآن الكريم مرة واحدة وإنما نزل على محمد ﷺ فى مدة تقرب من العشرين عامـــاً . وتفسر كلمة "قرآن" من قرأ بمعنى تلاوة شيء مكتـــوب أو التـــلاوة الـــتى لا تستوجب ما هو مكتوب بيد القارىء .

والقرآن الكريم يتكون من سور وتحتوى السور على الآيات. والآيـــة فى الأصل البرهان أو المعجزة فهى دليل على نبوة محمد ﷺ . وترجع سور القـــرآن الكريم إلى فترتين : الفترة المكية قبل سنة ٦٢٢م ، والفترة المدنية من ســـنة ١ - ١١ هـــ (٦٢٢-٦٣٢م) .

ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم هو المصـــدر الأول لدراســـة التـــاريخ الإسلامى لاسيما نشأة الإسلام وعقائده . وفى القرآن الكريم أيضاً بعض أخبـــار العرب قبل الإسلام خاصة ذكر بعض القبائل العربية مثل عاد وثمود وقصـــص بعض الأنبياء وموضوع سيل العرم وأصحاب الفيل وبعض أخبار ملوك اليمـــن . ومن سور القرآن الكريم التى جاء فيها بعض أخبار العرب القدماء سورة البقـــرة وآل عمران والنساء والكهف والحاقة .

ولقد أبرز القرآن بجلاء العامل الزمنى فى التغيير التاريخى حيث أشـــار إلى أن التغييرات التاريخية لا تحدث فجأة حيث يوجد تجميع بطىء للأسباب ينتـــج عنه تغيير كبير بعد مرور فترة طويلة من الزمن وتشمل الســـنة الإلهيـــة وفـــق الأسلوب القرآنى للفترات الزمنية حتى تمتد ألف عام مما يعده البشر الأمر الـــذى يفسر أن مقياس الزمن الإلهى غير مقياس الزمن البشرى كما يقدم القرآن الكـــريم بعض الشواهد الخاصة بالعناصر التى من خلالها تتم التغييرات التاريخية .

غير أنه ينبغى أن نذكر صعوبة الاستفادة من ذلك المصدر الرئيســـى لأن القرآن الكريم لم يشمل بالذكر كافة الحوادث التى مر بها الإســـلام ، أو كـــل الإعمال التى قام بها الرسول ﷺ .

أما بالنسبة لجمع القرآن الكريم وحفظه فقد كان الرسول ﷺ يحفظ مـــا يمليه عليه الوحى فى مكة والمدينة ، ويظهر أنه استعان لكتابة القـــرآن الكـــريم ببعض الكتاب . زيد ابن ثابت وأُبىّ بن كعب ، وكان هؤلاء الكتاب يكتبـون على المواد المتوفرة مثل جريد النخل والحجارة الرقيقة والرقاع من جلـــد أو ورق وعظام البعير ، والجلد .

وحينما توفى الرسول ﷺ كان لابد من حفظ القرآن الكـــريم ، فكـــان الجمع الأول للقرآن فى حياة أبى بكر الصديق ، إذ يروى أن عمر بن الخطـــاب رضى الله عنه إقترح على أبى بكر بجمع القرآن بعد مقتل عدد كبير من القـــراء فى الحرب مع مسيلمة الكذاب ، وقد عهد الصديق بذلك إلى زيد بن ثابت كـــاتب الوحى للرسول ﷺ ، ولما أتم جمع القرآن أعطى نسخته لأبى بكر، وقد خلفـــها

أبو بكر لعمر بن الخطاب الذى تركها عند ابنته حفصة زوج الرسول ﷺ ، أما جمع القرآن النهائى فقد تم فى عهد الخليفة عثمان بن عفان .

ويمكن القول أن القرآن جمع على أساس طول السور وقصرها ، وليس بحسب ترتيبها التاريخى وزمن نزولها ، فالسورة الواحدة لم تنزل مرة واحدة بل كثيراً ما تكون فى السورة الواحدة آيات مكية وأخرى مدنية . وقد تكون السورة مكية خالصة ولكن آياتها نزلت فى فترات متباعدة ثم جمعت فى سورة واحدة .

أما الأحاديث فتتصل إتصالاً وثيقاً بنشأة التاريخ عند العرب بعد القرآن وإن كانت معانى الكلمات تشتق وتستمد من مصادرها ، فالإصطلاح " الحديث **Tradition** " معناه الرواية ويراد به فى علم الشريعة الإسلامية وخاصة فى علم الحديث ما ورد عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير . أما كلمة سُنة فتعنى طريقة التصرف فى النواحى الإجتماعية والدينية والقانونية . وكانت هذه الكلمة معروفة عند العرب قبل الإسلام وتعنى العادة المتبعة عندهم، فلما ظهر الإسلام صارت تعنى عادة الرسول ﷺ . وقد أدرك أصحاب الرسول ﷺ أن عليهم مع واجب نشر الإسلام ضرورة تدوين السنة النبوية لأن السنة مصدر التشريع تشمل جميع أنواع العبادات والمعاملات والتشريع والتوجيه وتمثل جزءاً من سيرة الرسول ﷺ وكفاحه وغزواته وسراياه وكانت الأحاديث تمثل جزءاً من التاريخ الإسلامى فى مراحله الأولى وعلى اعتبار أنها متصلة بحياة الرسول ﷺ فأطلقوا عليها السيرة النبوية .

ويمكن القول أن السُنة والحديث كلمتان مترادفتان كلاهما يدوران حـــول محور واحد ، وينتهيان إلى أقوال الرسول ﷺ المؤيدة لأعمالـــه ، وفى أعمالـــه المؤيدة لأقواله ، وقد اتفق العلماء على أن الحديث والسنة هما شىء واحد .

فالحديث يشير للقول ، والسُنة تشير للعمل ، وقد تكون السُنة مشـــمولة بحديث كما يتضح من قول الإمام أحمد بن حنبل "فى هذا الحديث خمس سـنن" . ويعلم كل مطلع على صفحات علم الحديث مقدار الإرتبـــاط القـــائم بـــين الحديث والإسناد .

يبدأ الحديث وجوده من الشخص الذى دونه ويرتقى فى جوف المـــاضى إلى قول قاله النبى ﷺ أو واقعة شاهدها أحد الصحابة عنه فحدثـ ه ، وهذا نقلها بدوره لآخر حتى وصلت إلى مدوّن الحديث . أو بتعبير قاله الرسول ﷺ أو فعله نقله " أ " إلى "ب " شفاها، ثم أبلغه " ب" إلى " حـــ " الذي هو مدون الحديث .

فالحديث إذن هو المتن المتسلسل رواية من " أ " إلى " ى " متنقلاً بـــين " ب" و"حـــ" والإسناد هو التسلسل ذاته ، أعنى بذلك أنه سلسلة الرواة الـــذى سار فيها الحديث حتى مدونه . ويمكن القول أن كل حديث كامل يتكون مـــن قسمين : القسم الأول هو سلسلة رواة الحديث ويسمى الإسناد لأنـــه يثبـــت صحة الخبر ، والقسم الثانى للحديث "المتن" أى محتويات الحديث .

ولما كان المجتمع الإسلامي يستند في أساسه إلى الدين فقـــد إســتند إلى القرآن والسنة ، أما القرآن فإن نصه محدد . أما السنة والأحاديث فقد إســتطاع ذوو الأغراض المختلفة أن يدخلوا فيها ما يحلوا لهم لخدمة أغراضهم . والواقع أن أئمة الحديث متفقون على أن أحاديث كثيرة وضعتها جهات مختلفة ، ويشير ابن حزم صاحب كتاب " الفصل في الملل والأهواء والنحل " إلى وضع أحــاديث في حياة الرسول ﷺ نفسه ، ومنذ الفتنة الكبرى زمن عثمان بن عفان أخذ وضــع الحديث يزداد حتى إستفحل الأمر فيما بعد ، فنرى الأمويين يروجون الأحــاديث في فضائل عثمان بن عفان والأمويين .

وقد وضع العباسيون أحاديث تثبت حقهم في الخلافـــة، وينســب إلى المُهلب بن أبي صفرة الأحاديث ضد الخوارج ، كما وضــع بعــض الصوفيــة الأحاديث في تأييد الصوفية . أما الشيعة ، فإنهم يسمون الأحاديث "الأخبــار" ، ولا تنتقل الأحاديث عندهم بالإسناد ، وإنما تؤخذ وتروى عن أئمــة الشــيعة وحدهم .

ويمكن القول أن الكثيرين كانوا يروون الأحاديث مثل قصاص العامــة الذين كانوا يروون القصص الغريبة والأساطير الشعبية ، والخرافات لإضحــاك الناس وجلب رضاهم ، مقابل الحصول على المال . كــان هــؤلاء يضعــون الأحاديث الغريبة لإستهواء الناس ، كما كان هؤلاء بعض الزهاد الذين وضعوا الحديث لصرف الناس إلى الدين ، ومن هؤلاء نوح بن مريم الذي كان يُعد مــن كبار الفقهاء والمحدثين في خلافة أبي جعفر المنصور ، فقد روى كثيراً في فضــائل سور القرآن وإعترف أنه وضعها لوجه الله ، وذلك ليصرف بها الناس إلى القــرآن

المجيد . كما لعب الزنادقة والملاحدة دورهم في إختلاق الحديث لإفساد الدين الإسلامي .

ولم يقتصر الحديث في البداية على الحفظ والرواية الشفهية ، بل يبدو أن تدوين الحديث بدأ في حياة الرسول ﷺ ، ويقال أن عبد الله بن عمرو بن العاص إستأذن الرسول ﷺ في أن يكتب عنه ، فأذن له ، فقال : " يا رسول الله أكتب ما أسمع في الرضا والغضب. قال : نعم ، فإني لا أقول إلا حقاً " .

ويذكر ابن سعد عن اسحق بن يحيى عن مجاهد أنه قال : "رأيت عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة ، فسألته عنها فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه فيها أحد" . وقال أبو هريرة : " ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص ، فإنه كان يكتب ولا أكتب . وقال عبد الله : حفظت عن النبي ﷺ ألف مثل "

ويقال أن أبا بكر الصديق جمع خمسمائة حديث . وكانت عند علي بن أبي طالب صحيفة حديث أيضاً ، وكان عند عبد الله ابن عباس ، صحف عديدة ، وقد ترك عند موته من الكتب ما بلغ حمل بعير . كذلك كانت عند جابر بن عبد الله صحيفة وكانت هناك صحف لصحابة آخرين . وقد وجدت مثل هذه الصحف في عهد التابعين مثل الحسن البصري .

وقد تفرق صحابة رسول الله ﷺ في كافة البلاد المفتوحة ، نظراً لإتساع رقعة الدولة الإسلامية منذ العهد النبوي عن طريق السرايا ، والغزوات

ثم الفتوحات التي اشترك فيها صحابة الرسول ﷺ ، وربما تعمد الخلفاء تفريقهم في البلاد المفتوحة ليعلموا أهلها الدين الإسلامي .

ولا شك أن هؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس المدارس الدينية في العالم الإسلامي ، إذ يذكر المقريزي ، أن أهل المدينة كانوا يتبعون في الأكثر فتاوى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وأن أهل الكوفة كانوا يتبعون فتاوى عبد الله ابن مسعود ، وأن أهل مكة كانوا يتبعون فتاوى عبد الله بن عباس ، وأن أهل مصر كانوا يتبعون فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما جميعاً .

وكان أئمة الحديث الأول بعيدين عن السياسة في عصر الخلفاء الراشدين ، أما في عصر الدولة الأموية فقد كانت الخلافات بين الفقهاء والأمويين مستمرة باستثناء خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) ذلك أن الأمويين لم يحاولوا تقريب الفقهاء إليهم لتأييد حكمهم كما فعل الخلفاء العباسيين بعد ذلك، وقد رأى الفقهاء أن حكام بني أمية قد خرجوا على سنة الخلفاء الراشدين في اختيار الخلفاء فقد سن معاوية في الإسلام سنة الملك المنحصر في أسرة معينة بعد أن كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش . كما عمد معاوية بالتشهير بعلي بن أبي طالب على المنابر مما جعل شيعته يتذمرون منه .

ولما جاء العباسيون اعتمدوا على الفقهاء لتأييد خلافتهم ، ويبدو أن هذه السياسة كان لها أثرها في تنشيط حركة جمع الحديث . وقيل أن أول من دون في هذا العلم ابن شهاب الزهري شيخ الأمام مالك ، وأن الخليفة عمر بن عبد العزيز هو الذي أمر رسمياً بتدوين الحديث وقد كتب إلى الولاة في الأمصار

بموافاته بأحاديث رسول الله ﷺ . وقد كان يخشى ذهاب أهله وحملتـــهوكان الإمام ابن شهاب الزهرى المدنى ١٢٤هـــ هو أول من وضع كتاباً فى الحديـــث لم يسبقه إليه فيه أحد وقال : لم يدون هذا العلم أحد قبل تدوينى ، وقيل الإمـــام أبو بكر بن محمد بن عمر ابن حزم قاضى الخليفة عمر بن عبد العزيز على المدينة

ومن الصحائف الباقية إلى الآن والتى تعتبر من أقدم صحائف الحديـــث ، صحيفة عبد الله بن لهيعة المصرى (ت١٧٤هـــ) وهى ضمن مجموعـــة أوراق البردى بمدينة هيدلبرج .

أما أقـــدم الأحاديث المدونة الباقية ، فهى موطأ الإمام مالك ابن أنـــس (١٧٠ هـــ) الذى يمتاز مذهبه باعتماده على الحديث، ويعتبر الإمـــام مـــالك صاحب مدرسة أهل الحديث التى كان مركزها الأول فى المدينة المنورة ، وقـــد ظلت المدينة مركزاً يأتى ويرحل إليها طلبة هذا العلم من الأمصار الإســـلامية على طول امتداد التاريخ الإسلامى منذ القرن الأول الهجرى وحتى الآن ، حيـــث انفردت المدينة ، بنشأة علم الحديث ، وبرواية أكثر الســـنة النبويـــة ، ولكـــن شاركتها بقية العواصم الإسلامية ، حيث رحل علماء الحديث طلباً للحديث من أفواه الرواة .

وقد وصلنا الموطأ عن عدة روايات أهمها رواية تلميذه يحى بـــن يحـــى المصمودى الأندلسى ، ورواية سحنون ، ورواية الشيبانى . ومـــن الملاحـــظ أن الموطأ ليس مجموعة أحاديث بل هو كتـــاب فقـــهى ينـــتند إلى الأحـــاديث للإستشهاد .

استمرت الكتابة فى علم الحديث وظهرت مجاميع وفق تصانيف مختلفة فبعضهم رتب الحديث حسب الأبواب الفقهية ، وبعضهم حسب طبقات الرواة ، ومنهم من تقيد بالصحيح من الحديث وظهرت الكتب الستة لائمة الحديث ، وهم:

١- الإمام البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م .

٢- الإمام مسلم المتوفى سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م .

٣- الإمام الترمذى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م .

٤- أبو داود المتوفى سنة ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م .

٥- ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م .

٦- النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م .

وقد اعتمدت هذه المجاميع الستة وظهرت بعد ذلك عدة تصانيف ومعاجم وأكثرها شروحات وإختصارات للمجاميع الأولى . وهنا يحسن بنا أن نقول أن الأحاديث كانت تمثل جزءاً من التاريخ الإسلامى فى مراحله الأولى ، وعلى إعتبار انها متصلة بحياة الرسول ﷺ فأطلقوا عليها إسم السيرة النبوية.

ثم أرخ المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بالتقويم الهجرى، وذكروا فى ذلك أنه قال : " ضعوا للناس تاريخاً يتعاملون عليه ، وتصير أوقاتهم مضبوطة فيما يتعاطونه من معاملاتهم .. " ، واتفقوا على أن يجعلوا تاريخ دولة الإسلام من لدن الهجرة النبوية الشريفة من مكة إلى المدينة لأن وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد ...

وإذا كان بداية التأليف العلمى فى التاريخ عند المسلمين قـــد كتـــب فى القرن الأول فإنه لم يدون تدويناً صحيحاً وشاملاً إلا فى القرنين الثانى والثـــالث الهجريين ، كما كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف إلى دراسة سيرة النبى ﷺ وأعمال الصحابة ، والجماعة الإسلامية الناشئة ، وأخبار الغـــزوات والجـــهاد . وكان الإعتماد فيه على الرواية الشفهية .

وهكذا نرى أن علم التاريخ لم يختلف فى البداية عن علم الحديـــث إلا فى هدف كل منهما ، ونوع الروايات التى يعنى بها ، فالمحدثون يعنون بالروايـــات التى تقرر مبادىء فقهية أو خلقية ، بينما يعنى المورخون بالروايات الـــتى تســـرد الحوادث التاريخية .

ولا شك أن الحديث دراية ورواية ، والتاريخ عند العرب دراية وروايـــة . وحسبنا دليلاً على إشتراك العلمين فى المصادر والمنهج أن كل جيل كان يـــأخذ الروايات عن الجيل الذى سبقه وأن المتن فى كل رواية كان مسبوقاً بالسند .

وقد إعتنى المحدثون بالإسناد ، وكانوا لا يثقون بـــالحديث إلا إذا كـــان إسناده سلسلة متصلة من الرواة الموثوق بهم ، لذلك إتجهوا إلى دراسة الـــرواة والوصول إلى درجة تدقيق كل منهم فى نقل الحديث . وألف العلمـــاء بعـــض كتب الطبقات - سيرة الرجال- مثل طبقات ابن سعد " ت ٢٣٠ هـــ / ٨٤٤ م " وطبقات الحفاظ الذهبى " ت ٧٤٨ هـــ / ١٣٤٧م". وكـــان هـــذا كلـــه

أساساً لعلم نقد الرواة ، وهو المعروف فى مصطلح الحديث باسم "الجرح والتعديل " .

وأقدم الكتب التاريخية التى تجمع بين الحديث والتاريخ هى كتب المغازى والسير ، وطبيعى أن تكون نشأتها فى المدينة ، ويبدو أن الكتابة فى تاريخ المغازى والسير لم تنتشر من المدينة إلى غيرها من الأمصار إلا فى القرن الثانى للهجرة مثل بغداد ، والقيروان ، والبصرة ، والكوفة ، وقرطبة ، وغرناطة ، ودمشق والفسطاط .وكانت الكتب التاريخية الأولى تبحث فى السيرة والمغازى ، وتجمع أخبار هجرة المسلمين إلى الحبشة وإلى المدينة ، وأخبار غزوات الرسول ﷺ .

ومن أقدم كتاب المغازى عروة بن الزبير " ٩٢ هـ / ٧١٠ م " ، وقد وصلت إلينا بعض رسائله فى كتب ابن اسحق ، والواقدى ، والطبرى ، ومنهم إبان بن عثمان بن عفان " ت ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م " الذى يذكر بانه أول من دون مجموعة خاصة بالمغازى .

ومن أشهر مؤرخى السيرة ، تذكر شرحبيل بن سعد " ت ١٢٣ هـ / ٧٤٠ م " وعبد الله بن أبى بكر بن حزم " ت ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م " ، وعاصم ابن عمر بن قتادة " ت ١٢٠ هـ / ٧١٧ م" ، وهؤلاء من المدينة .

أما وهب بن المنبه " ت ١١٠ هـ / ٧٢٨ م " فقد كان من الرعيل الأول بين كتاب المغازى ، وكان يمنياً من إحدى الأسرات الفارسية التى إستقرت فى اليمن قبل الإسلام ، وقد إشتهر وهب بمعرفته بأخبار أهل الكتاب

من يهود ، ومسيحيين عن طريق اليمنيين من أهل الكتاب . ومن المرجح انه كان على دراية بالكتابات القديمة ، فقد أشار المسعودى إلى أن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك عثر على حجر عليه نقوش غير عربية أثناء بناء الجامع الأموى بدمشق فى سنة ٨٧ هـ " ، وعرض الحجر على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته ، فوجه به إلى وهب بن منبه ليقرأها " .

وينسب إلى وهب بن منبه " كتاب المبتدأ " الذى استغله الثعلبى فى كتابه " عرائس المجالس فى قصص الأنبياء " ، ويشير عنوان كتاب " المبتدأ " إلى مبتدأ الخلق . ولكن الكتاب يضم كثيراً من قصص الأنبياء . كما ينسب إلى وهب " كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم " وغير ذلك وهو التاريخ القديم الخرافى لليمن . وعلى الرغم من أن هذه الكتب لم تصل إلينا فإننا نعرف أجزاء منها فى كتاب " التيجان " لإبن هشام .

ومن أشهر من كتبوا فى المغازى محمد بن مسلم الزهرى " ت ١٢٤ هـ / ٧٤١ م" وهو قرشى من قبيلة زهرة ، وقد درس فى الدينة وتنقل بين الحجاز ودمشق واتصل بالخلفاء الأمويين وإشتهر بسعة معارفه وبأنه جمع علم شيوخه فى المدينة . وكان الزهرى " لا يبقى فى المجلس شاباً ، ولا كهلاً ، ولا عجوزاً ، ولا كهلة إلا سألهم " ، وقد إمتاز بإقباله على تدوين الحديث ، والأخبار على غير المألوف فى ذلك الوقت ، وأنه دون كثيراً من الأخبار بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك .

. . . أحد تلاميذه أنه وجدت فى مكتبة الأمويين بدمشق أكــوام مــن عمدات . . . إحتوت على المادة العلمية للزهرى ، وتشير المصادر القديمــة إلى أن الزهرى . . . كتاباً عن القبائل العربية الشمالية بأمر من خالد ابن عبد الله القسرى ، كما . . . كتاباً فى سيرة النبى ﷺ .

ومن أشهر تلاميذ الزهرى محمد بن اسحق " ت ١٥١ هـــ / ٧٦٨ م " وقد رحل إلى العراق واتصل بالمنصور وألف كتاباً فى المغازى إنقسم إلى ثــلاث أجزاء : المبتدأ ، والمبعث ، والمغازى . فعرض فى الجزء الأول : تاريخ الرســالات قبل الإسلام ، والثانى : سيرة النبى ﷺ وفى الجزء الثالث : عرض الدور المــدنى من السيرة . وقد أشار ابن النديم فى كتاب الفهرست إلى كتاب لابــن اســحق سماه "كتاب الخلفاء " ، ولسنا نعرف شيئاً عن مادة الكتــاب إلا أن الطــبرى ذكره بين رواياته فى تاريخ الخلفاء الراشدين .

وأعظم من خلف ابن اسحق فى الكتابة عن المغازى محمــد بــن عمــر الواقدى " ت ٢٠٧ هـــ / ٨٢٣ م " وهو من أهل المدينة ، وإتصــل بــالبلاط العباسى وعُين قاضياً للرصافة فى خلافة المأمون ، ويقال أنه خلف ستمائة قمطــر من الكتب من نسخ غلامين مملوكين وأنه إشترى مخطوطات بألفى دينار .

وقد أشار ابن النديم فى كتاب "الفهرســت " ، ويــاقوت الحمــوى فى "معجم الأدباء "إلى مؤلفات عديدة للواقدى فى القرآن ، والحديث ، والفقــه ، والتاريخ . ومن مؤلفاته فى التاريخ : كتاب " التاريخ الكبــير " ، وكتــاب " الطبقات " ، و"السيرة " ، وعدد من الرسائل فى أخبار مكة ، وبيعة الســقيفة ،

وسيرة أبي بكر الصديق والمرتدين والمتنبئين ، وفتوح الشام والعراق ، وضــــرب الدنانير والدراهم . ويعتبر كتاب " المغازى " هو الكتاب الوحيد الذى وصــــل إلينا من مؤلفات الواقدى .

أما محمد بن سعد فيعد من أشهر تلاميذ الواقدى ، ومن أهم مؤلفاته فى المغازى كتابه المعروف بكاتب الواقدى " ت ٢٣٠ هـــ / ٨٤٥ م " ، وقــد ولد فى البصرة ثم رحل إلى المدينة ، وبغداد ، وإتصل بالواقدى . ومن كتبــه " أخبار النبـ[illegible] كتـــــاب "الطبقات". وقد جمع ابن معروف الكتـــابين فى كتاب و[illegible]ة ٣٠٠ هـــ / ٩١٣ م ، وتؤلف سيرة النبى ﷺ الجـــزء الأول منه ، وتلى ذلك تراجم الصحابة والتابعين .

يتضح لنا مما سبق أن كُتاب " السيرة النبوية " وأصحاب كُتب "الطـ[illegible] " ومؤرخى الفتوحات الإسلامية ، والمغازى ، كانوا أكبر الممـــهدين لكتابـ[illegible] المؤرخين فى العصر العباسى حين بدأ المؤرخون يكتبـــون فى التـــاريخ العـــام ، وأحوال الأمم والبلاد ، وقد تأثروا فى ذلك بنماذج كتب التاريخ العام الفارســية والتى نقل بعضها إلى العربية مثل كتاب " سير ملوك العجم " الذى عربــه ابــن المقفع " ت ١٤٠ هـــ / ٧٥٧ م " .

ويعتبر ابن قتيبة الدينورى من أقدم كتاب التاريخ العام "ت٢٧٦ هـــــ / ٨٨٩ م " . ولد بالكوفة ونسب إلى مدينة الدينور بالعراق العجمى ، وقد تــولى قضاءها فنسب إليها . و لم يكن ابن قتيبة مؤرخاً فحسب بل كان عالماً فى النحــو [illegible] ، والعلوم الدينية ، والنقد الأدبى .

ومن كتبه التاريخية "كتاب المعارف" وهو موجز فى تاريخ الخليقة والرسل ، والعرب فى الجاهلية ، والسيرة النبوية ، والفتوح والمغازى ، وأخبار الصحابة والتابعين ، والعرب ، والعجم . ومن مؤلفاته أيضا كتاب "الإمامة والسياسة" وموضوعه الخلافة وشروطها وتطورها حتى عصر الأمين والمأمون . أما كتاب "عيون الأخبار" فيشتمل على أبواب كثيرة مثل كتاب السلطان ، وكتاب الحرب ، وكتاب العلم بأخبار العلم والعلماء .

أما اليعقوبى وهو أحمد بن أبى يعقوب بن واضح ، وهو من معاصرى ابن قتيبة ، كان جده من موالى الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور . وكان اليعقوبى معروفا بميوله العلوية ، وجاب معظم الأقطار الإسلامية ، توفى سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م ، وقد كان رحالة ، ومؤرخا ، وجغرافيا ، ألف كتاب "البلدان" وهو أقدم الكتب التى وصلت إلينا من نوعه . أما كتابه فى التاريخ فيعرف بتاريخ اليعقوبى . وقد اشتهر من أهل الدينور مؤرخ آخر هو أبوحنيفة الدينورى (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٢م) أو (٢٩٠هـ / ٩٠٣م) ، وكان الدينورى من علماء اللغة ، والنبات ، والهندسة والحساب ، وقد أخذ عن البصريين والكوفيين . ومن مؤلفاته كتاب "الأخبار الطوال" وهو على نحو تاريخ اليعقوبى فهو يبدأ من آدم عليه السلام إلى انقضاء ملك يزدجرد ويذكر ملوك قحطان وملوك الروم وملوك الترك فى كل عصر . ثم يذكر الأئمة والخلفاء إلى آخر أيام المعتصم وثورة بابك الخرمى وحروبه ، وهذا الكتاب أكثر اختصارا من تاريخ اليعقوبى فيما يتعلق بالتاريخ العام ، وأوفى فى تاريخ بنى أمية .

أما الطبرى فهو من أشهر المؤرخين وقد توفى (٣١٠هـ / ٩٢٢م) فى بغداد . ولد الطبرى فى طبرستان ورحل إلى مصر ، والشام ، والعراق ، طالبا للعلم ، واشتهر الطبرى بتفسيره للقرآن الكريم ، وكتابه " تاريخ الرسل والملوك " الذى يعرف بتاريخ الأمم والملوك والمشهور بتاريخ الطبرى ، وقد اعتمد بعض المؤرخون بعده على تاريخه مثل مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، وأبو الفداء ، والذهبى . وقد اشتهر الطبرى بمثابرته على العمل حتى زعموا أنه قضى أربعين سنة يكتب فى كل يوم أربعين صفحة .

وكتابه أخبار الرسل والملوك أول كتب التاريخ الشاملة فى اللغة العربية . وقد بدأه بالخليقة ، ووقف فيه عند سنة ٣٠٢هـ ، وقد رتبه على السنين الهجرية ، واتبع فيه طريقة الإسناد إلى رواة الحوادث بالتسلسل ، ويقال أن كتابيه فى التاريخ والتفسير كان كل منهما ٣٠ ألف ورقة ، وقد أشار عليه تلاميذه باختصاره إلى الحجم الحالى وهو نحو عشر ذلك . وقد اعتمد الطبرى فى تأليفه على الكتب التى كانت موجودة وقتئذ وعلى ما جمعه من أحاديث وروايات عن شيوخه .

ونلاحظ فى تاريخه الصلة بين علمى الحديث والتاريخ ، والمعروف أن الطبرى محدث قبل أن يكون مورخا وأن تاريخه مكمل فى كثير من النواحى لكتابه الكبير فى تفسير القرآن الكريم .

القرامطة من خلال كتاب الطبرى

مازال كتاب تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبرى المصدر الأول للأحداث التى جرت فى عصره (٢٢٤-٣١٠ هـ) . وقد ورد فى هذا المصدر كثير من الأحداث التاريخية ، ومن هذه الأحداث نذكر أخبار القرامطة ثم نستكمل هذه الأخبار من ذيل تاريخ الطبرى وهو كتاب تاريخ الطبرى لمحمد بن عبد الملك الهمذانى حتى سنة ٣٦٧هـ الذى يعتبر النهاية الفعلية لفتنة القرامطة التى جرت على العالم الإسلامى كثير من الأهوال على مدى ما يقرب من قرن من الزمان .

وقد ذكر الطبرى أن حركة القرامطة قد بدأت فى سنة ٢٧٨هـ على خلاف ما جرى العرف عليه على اعتبار بداية الحركة كان فى سنة ٢٨٦هـ وهى السنة التى برز فيها نشاط سعيد بن حسن الجنابى ، وكان ذا دعوة إسماعيلية .

أما التسمية فينسبها الطبرى إلى صاحب الدعوة الأول ، إذ يقول أن اسمه هو (كرميت) التى خففت إلى (قرمط) ، ويذهب بعض الباحثين إلى أن الأسم قد عرب لأنه فيما يبدو تركى ، ومن ثم ينطق بفتح القاف وكسر الميم . بينما يذكر بعض الباحثين أنه حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط بسواد العراق

وإلى قرمط هذا تنسب القرامطة وقد قتله الخليفة لعباسي المكتفي بللـه (٢٨٩-٢٩٥هـ) .

والمعروف أن القرمطة اتخذوا البحرين والإحساء مقرا لهم وكانوا يغـيرون على البلاد المجاورة لهم ، وقد اجتاحوا البصرة والكوفة ، ودخلوا مكة وأخـذوا الحجر الأسود . واستمر نشاط القرامطة فى العقود الأولى مـن القـرن الرابـع الهجرى ، حتى توفى أبو طاهر سليمان بن سعيد الجنابى ، فبدأت سلطة القرامطـة فى التراجع وتمكن الفاطميون من إقناعهم برد الحجر الأسود إلى مكة .

وقد تزعم القرامطة الحسن بن الأعظم ، فقام بغـزو الشـام بمعاونـة الفاطميين ، لكن الجي الفاطمى كان يخطط لفتح الشام ونجح فى ذلـك سـنة ٣٥٨هـ ومن ثم تحولت النظرة إلى القرامطة إلى نظـرة عـداء فـد حـارب الفاطميون القرامطة عندما استولوا على دمشق سنة ٣٦٠هـ وصدوهـم عـن مصر عندما حاولوا غزوها ، ثم عقدوا مع القرامطة صلحا وأصبـح نشـاطهم مقصورا على الإحساء ، وتدريجيا فقد القرامطة نفوذهم فى شرق الوطن العـربى وفقدوا السيطرة على عمان ، ثم هاجمهم البويهيون فى الإحساء فتشتت جموعهم

يقول الطبرى فى ذكر ابتداء أمر القرامطة ضمن حوادث سنة ٢٧٨هـ :

وفيها وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد العراق ، فقـام ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة ومقامه بموضـع منه يقال له النهرين ، يظهر الزهد والتقشف ، ويسف ـنسـجه ـ الخـوص ،

ويأكل من كسبه ، ويكثر الصلاة ، فأقام على ذلك مدة ، فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين ، وزهده فى الدنيا ، وأعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس خمسون صلاة فى كل يوم وليلة ، حتى فشا ذلك عنه بموضعه ، ثم أعلمهم أنه يدعو لى إمام من أهل بيت الرسول ، فلم يزل على ذلك يقعد إلى بقال فى القرية ، وكان بالقرب من البقال نخل اتراه قوم من التجار ، واتخذوا حظيرة جمعوا فيها ما صرموا - مطع ثمرها - من حمل النخل ، وجاءوا إلى القال فسألوه أن يطلب لهم رجلا يحفظ عليهم ما صرموا من النخل ، فأومى لهم إلى هذا الرجل ، وقال : إن أجابكم إلى حفظ ثمرتكم ، فانه بحيث تحبون ، فناظروه على ذلك ، فأجابهم إلى حفظه بدراهم معلومة ، فكان يحفظ لهم ، ويصلى أكثر نهاره ويصوم ، ويأخذ عند إفطاره من البقال رطل تمر ، فيفطر عليه ، ويجمع نوى ذلك التمر .

فلما حمل التجار ما لهم من التمر ، صاروا إلى البقال ، فحاسبوا أجرهم هذا على أجرته ، فدفعوها إليه ، فحاسب الأجير القال على ما أخذ منه من التمر ، وحط من ذلك النوى الذى كان دفعه إلى البقال ، فسمع التجار ما جرى بينه وبين البقال فى حق النوى ، فوثبوا عليه فضربوه ، وقالوا : ألم ترض أن تكون أكلت تمرنا حتى بعت النوى ، فقال لهم البقال : لا تفعلوا ، فإنه لم يمس تمركم ، وقص عليهم قصته ، فندموا على ضربهم إياه ، وسألوه أن يجعلهم فى حل . ففعل ، وازداد بذلك نبلا عند أهل القرية لما وقفوا عليه من زهد .

ثم مرض ، فمكث مطروحا على الطريق ، وكان فى القرية رجل يحمل على أثوار له ، أحمر العينين شديد حمرتها ، وكان أهل القرية يسمونه كرميته

لحمرة عينيه ، وهو بالنبطية أحمر العينين ، فكلم البقال كرمته هذا ، فى أن يحمـلى هذا العليل إلى منزله ، ويوصى أهله بالإشراف عليه والعناية به ، ففعـــل وأقـــام عنده حتى برأ . ثم كان يأوى إلى منزله ، ودعا أهل القرية إلى أمره ، ووصــــف لهم مذهبه ، فأجابه أهل تلك الناحية ، وكان يأخذ من الرجل إذا دخل فى دينـــه دينارا ، ويزعم أنه يأخذ ذلك للإمام . فمكث بذلك يدعوا أهل تلك القــــرى فيجيبونه . واتخذ منهم اثنى عشر نقيبا ، أمرهم أن يدعوا النــــاس إلى دينـــهم ، وقال لهم : أنتم كحواري عيسى بن مريم ، فاشتغل أكرة تلك الناحيـــــة عــــن أعمالهم بما رسم لهم من الخمسين صلاة التى ذكر أنها مفترضة عليهم

وكان للهيعسم ــ الهيصم من الرجال : القوى ــ فى تلك الناحية ضيــــاع فوقف على تقصير أكرته فى العمارة ، فسأل عن ذلك ، فأخبر أن إنسانا طــــرأ عليهم ، فأظهر لهم مذهبا من الدين ، وأعلمهم أن الذى أفترضــــه الله عليـــهم خمسون صلاة فى اليوم والليلة ، فقد شغلوا بها عن أعمالهم ، فوجــــه فى طلبــــه ، فأخذ وجئ به إليه ، فسأله عن أمره ، فأخبره عن قصته ، فحلف أنه يقتله .

فأمر به فحبس فى بيت ، وأقفل عليه الباب ، ووضُع المفتاح تحت وسـادته وتشاغل بالشرب ، وسمع بعض من فى داره من الجوارى بقصته فرقت له ، فلمـــا نام الهيصم أخذت المفتاح من تحت وسادته ، وفتحت الباب وأخرجته ، وأقفلت الباب ، وردت المفتاح إلى موضعه . فلما أصبح الهيصم دعا بالمفتاح ففتح البــاب فلم يجده ، وشاع بذلك الخبر ، ففُتن به أهل تلك النحية ، وقالوا : رُفع ثم ظـــهر فى موضع آخر . ولقى جماعة من أصحابه ، وغيرهم فسألوه عن قصته ، فقـــال : ليس يمكن أحداً أن يبدأنى بسوء ، ولا يقدر على ذلك منى ، فعظم فى عينــــهم ،

ثم خاف على نفسه ، فخرج إلى ناحية الشام ، فلم يعرف له خبر . وسمى باسم الرجل الذى كان فى منزله صاحب الأثوار كرميتة ، ثم خفف فقالوا قرمط

ذكر هذه القصة بعض أصحابنا عمن حدثه ، أنه حضر محمد بن داود بن الجراح ، وقد دعا بقوم من القرامطة من الحبس ، فسألهم عن زكرويه ، وذلك بعدما قتله ن وعن قرمط وقصته . وأنهم أوموا له إلى شيخ منهم ، وقالوا له : هذا سلف ذكرويه ، وهو أخبر الناس بقصته ، فسله فأخبره بالقصة .

وفى هذا الصدد يذكر الطبرى عن محمد بن داود أنه قال : قرمط رجل من سواد الكوفة ، كان يحمل غلات السواد على أثوار له ، يسمى حمدان ويلقب بقرمط . ثم فشا أمر القرامطة ومذهبهم ، وكثروا بسواد الكوفة ، ووقف الطائى أحمد بن محمد على أمرهم ، فوظف على كل رجل منهم فى كل سنة دينارا ، وكان يجبى من ذلك مالا جليلا ، فقدم قوم من الكوفة فرفعوا إلى السلطان أمر القرامطة ، وأنهم قد أحدثوا دينا غير الإسلام ، وأنهم يرون السيف على أمة محمد إلا من بايعهم على دينهم — المزعوم — ، وأن الطائى يخفى أمرهم على السلطان ، فلم يلتفت إليهم ، ولم يسمع منهم ، فانصرفوا ، وأقام رجل منهم مدة طويلة بمدينة السلام ، يرفع ويزعم أنه لا يمكنه الرجوع إلى بلده خوفا من الطائى . وكان فيما حكوا عن هؤلاء القرامطة من مذهبهم أنهم جاءوا بكتاب فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . يقول الفرج بن عثمان ، وهو من قرية يقال لها نصرانة ، داعية إلى المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدى ، وهو

أحمد بن محمد بن الحنفية ، وهو جبريل . وذكر أن المسيح تصور له في جسم إنسان ، وقال له : إنك الداعية ، وإنك الحجة ، وإنك الدابة ، وإنك روح القدس ، وإنك يحيى بن زكرياء . وعرفه أن الصلاة أربع ركعات ك ركعتان قبل طلوع الشمس ،وركعتان قبل غروبها ، وأن الأذان في كل صلاة أن يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، مرتين أشهد أن آدم رسول الله ، أهد أن نوحاً رسول الله ، أشهد أن إبراهيم رسول الله ، أشهد أن موسى رسول الله ، وأشهد أن عيسى رسول الله ، وأشهد أن محمد رسول الله ، وأشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، وأن يقرأ في كل رقعة الاستفتاح ، وهي من المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية . والقبلة إلى بيت المقدس ، والحج إلى بيت المقدس ، ويوم الجمعة يوم الأثنين لا يُعمل فيه شيئ ، والسورة " الحمد لله بكلمته ، وتعالى باسمه ، المتخذ لأولياله بأوليائه . قل إن الأهلة مواقيت للناس ، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام ، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادى سبيلي . اتقون يا أولى الألباب ، وأنا لا أسأل عما أفعل ، وأنا العليم الحكيم ، وأنا الذى أبلُوا عبادى ، وأمتحن خَلقى ، فمن صبر على بلائي ومحنتى واختبارى ألقيته في جنتى ، وأخلدته في نعمتى ، ومن زال عن أمرى ، وكذب رسُلى ، أخلدته مهاناً في عذابى ، وأتممت أجلى ، وأظهرتُ أمرى ، على ألسنة رُسُلى ، وأنا الذى لم يعلُ عليّ جبار إلا وضعته ، ولا عزيز إلا أذللته ، وليس الذى أصر على أمره ودوام على جهالته ، وقالوا : لن نبرح عليه عاكفين ، وبه مؤمنين : أولئك هم الكافرون ".

ثم يركع ويقول في ركوعه : سبحان ربي ربُّ العزة وتعالى عما يصف الظالمون ، يقولها مرتين ، فإذا سجد قال : الله اعلى ، الله أعلى ، الله أعظم ، الله أعظم .

ومن شرائعه أن الصوم يومان في السنة ، وهما المهرجان والنوروز ، وأن النبيذ حرام والخمر حلال ، ولا غُسل من جنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة ، وأن من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه ممن خالفه أخذت منه الجزية ولا يؤكل كل ذي ناب ، ولا كل ذي مِخلب .

وكان مصير قرمط إلى سواد الكوفة قبل قتل صاحب الزّنج ، وذلك أن بعض أصحابنا ذكر عن سلف زكرويه أنه قال : قال لي قرمط : صرتُ إلى صاحب الزنج نووصلت إليه ، وقلت له : إن على مذهب ن وورائي مائة ألف سيف ، فناظرني ، فإن اتفقنا على المذهب ملتُ بمن معي إليك ، وغن تكن الأخرى انصرفت عنك . وقلت له : تعطيني الأمان ففعل . قال : فناظرته إلى الظهر ، فتبين لي في آخر مناظرتي إياه أنه على خلاف أمري ، وقام إلى الصلاة فانسللت ، فمضيتُ خارجاً من مدينته ، وصرت إلى سواد العراق .

و في سنة ٢٨٦هـ ذكر الطبري ظهور رجل من القرامطة يعرف بـأبي سعيد الجنابي بالبحرين ، فاجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة ، وكان خروجه في أول هذه السنة ، وكثر أصحابه في جمادى الآخرة ، وقوى أمره ، فقتل من حوله من أهل القرى ، ثم صار إلى موضع يقال له القَطيف ، بينه وبين البصرة مراحل ، فقتل من بها . وذكر أنه يريد البصرة . فكتب أحمد بن يحيى

الواثقي _ وكان يتقلد معاون البصرة وكور دجلـــة في ذلـــك الوقـــت _ إلى السلطان بما اتصل به من عزم هؤلاء القرامطة ، فكتب إليه وإلى محمد بن هشـــام المتولى أعمال الصدقات والخراج والضياع بها ، في عمل سور علـــى البصـــرة ، فقُدّرت النفقة على ذلك أربعة عشر ألف دينار ، فامر بالإنفاق عليه فَبُنى .

وفي شهر ربيع الأول سنة ٢٨٧هـــ ذكر الطبرى فيها أن القرامطـــة قـــد غلظ أمرهم في البحرين ، فأغاروا على نواحي هَجَرَ ، وقرّب بعضهم من نواحي البصرة ، فكتب أحمد بن محمد ابن يحيى الواثقى يسأل المددَ ، فوجه إليه في آخـــر هذا الشهر بثماني شَذَوات _ الشذوات ضرب أو نوع من السفن ، الواحـــــدة شذاة _ ، فيها ثلثمائة رجل ، وأمر المعتضد باختيار جيش ليفذه إلى البصرة .

وفي شهر ربيع الآخر منها ولى الخليفة المعتضدُ عباس بن عمـــر الغَنَـــوىّ اليمامة والبحرين ومحاربة أبي سعيد الجنّابيّ ومن معه من القرامطة ، وضم إليـــه زُهاء ألفيْ رجل ، فعسكر العباس بالفَرْكِ _ قرية قرب كلوازى قـــرب بغـــداد وناحية الجانب الشرقي منها _ أياماً حتى اجتمع إليه أصحابـــه ، ثم مضـــى إلى البصرة ، ثم شخص منها إلى البحرين واليمامة .

وفي هذه السنة كان خروج العباس بن عمرو الغنوي من البصرة بمن ضُـــم إليه من الجند ، مع من خَفّ معه من مطوّعة البصرة نحو أبي سعيد الجنابي ومـــن انضوى إليه من القرامطة ، فلقيهم طلائع لأبي سعيد ، فخلّف العباس ســـواده ، وسار نحوهم ، فلقى أبا سعيد ومن معه مساء ، فتناوشوا القتال ، ثم حجز بينـــهم الليل ، فانصرف كل فريق منهما إلى موضعهم .

فلما كان الليل انصرف من كان مع العباس أعراب بني ضَبة إلى البصـرة ، ثم تبعهم مطوعةّ البصرة ، فلما أصبح العباس غادى القرامطة الحرب ، فـاقتتلوا قتالاً شديداً . ثم إن صاحب ميسرة العباس ــ وهو نجاح أحمد بن عيسـى بـن شيخ ــ حمل في جماعة من أصحابه زُهاء مائة رجل على ميمنـة أبي سـعيد ، فوغلّوا فيهم ، فقتل وجميعٌ من معه ، وحَمَل الجنابي وأصحابه على أصحـاب العباس ، فانهزموا ، فاستأسر العباس ، وأسر من أصحابه زُهاء سبعمائة رجـل ، واحتوى الجنابي على ما كان في عسكر العباس ، فلما كان من غد يوم الوقعـة أحضر الجنابي من كان أسر من أصحاب العباس ، فقتلهم جميعاً ، ثم أمر بحطـب فطرح عليهم ، وأحرقهم . وكانت هذه الوقعة كما يذكر الطبري في آخر شـهر رجب سنة ٢٨٧هـ وورد خبرها بغداد لأربع خلون من شهر شعبان .

وفي هذه السنة يذكر الطبري أن الجنابي صار إلى هَجَر ــ قاعدة البحريـن ــ فدخلها وآمن أهلها ، وذلك بعد مصرفه من وقعة العباس ، وانصـرف فَـلُّ أصحاب العباس بن عمرو يريدون البصرة ، و لم يكن أفلت منهم إلا القليل بغير أزواد ولا كسا ، فخرج إليهم من البصرة جماعة بحو أربعمائة راحلـة ، عليـها الأطعمة والكسا والماء ، فخرج عليهم بنو أسد ، فأخذوا تلك الرواحل بما عليـها وقتلوا جماعة ممن كان مع تلك الرواحل ومن أفلت من أصحاب العباس ، وذلك في شهر رمضان ، فاضطربت البصرة لذلك اضطراباً شديداً وهمّوا بالإنتقال عنـها فمنعهم أحمد بن الواثقي المتولي لمعاونها من ذلك ، وتخوفوا هجـوم القرامطـة عليهم .

ولثمان خلون من شهر رمضان وردت خريطة ـــ خرائط كتب السلطان وعماله ـــ على السلطان من الأبلّة بموافاة العباس بن عمرو فى مركب من مراكب البحر ، وأن أبا سعيد الجنابى أطلقه وخادماً له .

ولإحدى عشرة خلت من شهر رمضان ، وافى العباس بن عمرو مدينة السلام ، وصار إلى در المعتضد بالثّريا ـــ أبنية بناها المعتضد العباسى قرب التاج "والتاج من دور الخلافة العباسية بناه جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى على الجانب الشرقى لنهر دجلة وأتقن بناءه ثم أهداه للخليفة هارون الرشيد" ، بينهما مقدار ميلين ، وعمل بينهما سرداباً تمشى فيه حظاياه من القصر الحسنىّ ـــ وهو قصر التاج وسمى الحسنى لأن الخليفة المأمون وهبه للحسن بن سهل وكتبه باسمه بعد زواج الخليفة المأمون من بُورَانَ بنت الحسن بن سهل ـــ فذُكر أنه بقى عند الجنابى أياماً بعد الوقعة ، ثم دعا به ، فقال له : أتحب أن أطلقك ؟ ، قال : نعم ن قال : امض وعرّف الذى وجّه بك إلىّ ما رأيت . وحمله على رواحل ، وضم إليه رجلاً من أصحابه ، وحملهم ما يحتاجون إليه من الزاد والماء ، وأمر الرجال الذين وجههم معه أن يؤدوه إلى مأمنه ، فساروا به حتى وصلوا لى بعض السواحل ، فصادف به مركباً ، فحمله ، فصار إلى الأبلة ، فخلع عليه المعتضد وصرفه إلى منزله .

وفى يوم الجمعة لاثنتى عشرة خلت من شهر شوال ، ورد الخبر كما يذكر الطبرى على السلطان أن القرامطة بالسواد من أهل جُنُبلاء وثبوا بواليهم بدر غلام الطائى ، فقتلوا من المسلمين جمعاً فيهم النساء والصبيان ، وأحرقوا المنازل .

ويذكر الطبري أن بدر غلام الطائي أوقع بالقرامطة على غرة منهم بنواحي روزمستان وغيرها ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ثم تركهم خوفاً على السواد أن يخرب ، إذ كانوا فلاحيه وعماله ، وطلب رؤساءهم في أماكنهم ، فقتل من ظفر به منهم ، وكان السلطان قد قوّى بدراً بجماعة من جنده وغلمانه وكانت هذه الوقعة في يوم السبت لاثنتي عشرة خلت من ذي القعدة سنة ٢٨٧هـ .

وفي سنة ٢٨٨هـ وصل القرامطة إلى مشارف البصرة ، فاشتد جزع أهلها منهم حتى هموا بالهرب منها والنقلة عنها ، فمنعهم من ذلك واليهم .

وفي سنة ٢٨٩هـ انتشر القرامطة بسواد العراق ، فوجه إليهم شبل غلام أحمد ابن محمد الطائي ، وتقدم في إليه في طلبهم ، وأخذ من ظفر به منهم وحملهم إلى باب السلطان . وظفر برئيس لهم يعرف بأبن أبي الفوارس ، فوجه به معهم ، فدعا به المعتضد لثمان بقين من المحرم ، فسأله ، ثم أمر به فقلعت أضراسه ، ثم خلع بمد إحدى يديه ببكرة ، وعلق في الأخرى صخرة ، وترك على حاله تلك من نصف النهار إلى المغرب ، ثم قطعت يداه ورجلاه من غد ذلك اليوم ، وضربت عنقه ، وصلب بالجانب الشرقي ، ثم حملت جثته بعد أيام إلى الياسرية ـــ قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى بينها وبين بغداد ميلان ـــ فصلب مع من صلب هناك من القرامطة .

ظهور القرامطة بالشام

وفي ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ توفي الخليفة المعتضد وخلفه المكتفي بالله ويذكر الطبري أن زكروية بن مهرويه كان داعية قرمط لما تتابع من المعتضد توجيه الجيوش إلى من بسواد الكوفة من القرامطة ، وألح في طلبهم ، وأثخن فيهم القتلى ، ورأى أنه لا مدفع عن أنفسهم عند أهل السواد ولا غناء ، سعى في استغواء من قرب من أعراب أسد ، وطيئ ، وتميم ، وغيرهم من قبائل الأعراب ، ودعاهم إلى رأيه ، وزعم لهم أن من بالسواد من القرامطة يطابقونهم على أمره إن استجابوا له . فلم يستجيبوا له ، وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر بالسماوة فيما بين الكوفة والبصرة ودمشق في طريق تدمر وغيرها ، وتحمل الرسل وأمتعة التجار على إبلها ، فأرسل زكرويه أولاده إليهم ، فبايعوهم ، وخالطوهم ، وانتموا إلى علي بن أبي طالب وإلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وذكروا أنهم خائفون من السلطان وأنهم ملجئون إليهم ، فقبلوهم على ذلك ، ثم دبوا فيهم بالدعاء إلى رأي القرامطة فلم يقبل أحد من الكلبيين منهم ذلك ، إلا الفخذ المعروفة ببني العليص بن ضمضم بن عدي بن جناب ومواليه خاصة ، فبايعوا في آخر سنة تسع وثمانين ومائتين بناحية السماوة ابن زكرويه المسمى يحيى والمكنى أبا لقاسم . ولقبوه بالشيخ . على أمر احتال فيهم ، ولقب به نفسه ، وزعم لهم أنه أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد .

وقد قيل : أنه محمد بن عبد الله بن يحيى . وقيل إنه زعم أنه محمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي

طالب . وقيل إنه لم يكن لمحمد بن إسماعيل ابن يسمى عبد الله ، وزعم لهم أن أباه المعروف بأبي محمود داعية له ، وأن له بالسواد والمغرب مائة ألف تابع ، وأن ناقته التي يركبها مأمورة ، وأنهم إذا اتبعوها في مسيرها ظفروا ، وتكهن لهم ، وأظهر عضدا له ناقصة ، وذكر أنها آية ، وانحازت إليه جماعة من بني الأصبغ ، وأخلصوا له وتسموا بالفاطميين ،ودانوا بدينه ، فقصدهم سبك الديلمي مولى المعتضد بالله بناحية الرصافة ، واعترضوا كل قرية احتازوا بها حتى أصعدوا إلى أعمال الشام التي كان هارون بن خمارويه قوطع عليها ، وأسند أمرها هارون إلى طغج بن جف ، فأناخ عليها وهزم كل عسكر له لطغج حتى حصره في مدينة دمشق ن فأنفذ المصريون إليه بدرا الكبير غلام ابن طولون ، فاجتمع مع طغج على محاربته ، فواقعهم قريبا من دمشق ، فقتل الله عدو الله يحيى بن زكرويه .

ويذكر الطبري أن سبب قتل يحيى بن زكرويه أن بعض البرابرة زرقه بمزراق ــ رمح قصير ــ واتبعه نفاط ، فزرقه بالنار فأحرقه ، وذلك في كبد الحرب وشدتها ، ثم دارت على المصريين الحرب ، فانحازوا ، فاجتمعت موالي بني العليص إلى بني العليص ومن معهم من الأصبغيين وغيرهم على نصب الحسين بن زكرويه أخي الملقب بالشيخ فنصبوا أخاه ، وزعم لهم أنه أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر ابن محمد وهو ابن نيف وعشرين سنة ، وقد كان الملقب بالشيخ حمل موالي بني العيص على صريعهم ، فقتلوا جماعة منهم ، واستذلوهم ، فبايعوا الحسين بن زكرويه المسمى بأحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بعد أخيه ، فأظهر شامة في وجهه ذكر أنها آيته ، وطرأ إليه ابن عمه عيسى بن مهرويه المسمى عبد الله ، وزعم أنه عبد الله بن

أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد ، فلقبه المدثر ، وعهد أنه المعنى فى السورة التى يذكر فيها المدثر ، ولقبه غلاما من أهل المطوق ، وقلده قتل أسرى المسلمين ، وظهر على المصريين ، وعلى جند حمص وغيرها من أهل الشام ، وتسمى بإمرة المؤمنين على منابرها ، وكان ذلك كله فى سنة تسع وثمانين ، وفى سنة تسعين .

ويذكر الطبرى فى سياق الحديث عن القرامطة بالشام أنه قد ورد كتاب على بن عيسى من الرقة لخمس بقين من المحرم سنة ٢٩٠هـ ، يذكر فيه أن القرمطى ابن كرويه المعروف بالشيخ ، وافى الرقة فى جمع كثير ، فخرج إليه جماعة من أصحاب السلطان ورئيسهم سبك غلام المكتفى ، فواقعوه ، فقتل سبك ، وانهزم أصحاب السلطان .

ولست خلون من شهر ربيع الآخر ورد الخبر بأن طغج بن جف أخرج من دمشق جيشا إلى القرمطى ، عليهم غلام له يقال له بشير ، فواقعهم القرمطى فهزم الجيش وقتل بشيرا .

ولثلاث عشرة بقيت من شهر ربيع الآخر خلع على أبى الأغر ووجه به إلى حرب القرمطى بناحية الشام ، فمضى إلى حلب فى عشرة آلاف رجل .

وللنصف من جمادى الأولى سنة ٢٩٠هـ ، وردت كتب التجار إلى بغداد من دمشق مؤرخة لسبع بقين من ربيع الآخر يخبرون فيها أن القرمطى الملقب بالشيخ قد هزم طغج غير مرة ، وقتل أصحابه إلا القليل ، وأنه قد بقى

فى قلة وامتنع من الخروج ، وانما تجتمع العامة ، ثم تخرج للقتال ، وأنهم قد أشرفوا على الهلكة ، فإجتمعت جماعة من تجار بغداد فى هذا اليوم ، فمضوا إلى يوسف بن يعقوب ، فأقرءوه كتبهم ، وسألوه المضى إلى الوزير ليخبره خبر أهل دمشق ، فوعدهم ذلك .

وفى يوم الجمعة لأربع عشرة بقيت من شعبان قرئ كتابان فى الجامعين بمدينة السلام بقتل يحيى بن زكرويه الملقب بالشيخ ، قتله المصريون على باب دمشق ، وقد كانت الحرب اتصلت بينه وبين من حاربه من أهل دمشق وجندها ومددهم من أهل مصر ، وكسر لهم جيوشا ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، وكان يحيى بن زكرويه هذا يركب جملا برحاله ، ويلبس ثيابا واسعة ويعتم عمة إعرابية ، ويتلثم ، ولم يركب دابة من لدن ظهر إلى أن قتل ، وأمر أصحابه ألا يحاربوا أحدا وإن أتى عليهم حتى ينبعث الجمل من قبل نفسه ، وقال لهم : إذا فعلتم ذلك لم تهزموا .

وذكر أنه كان إذا أشار بيده إلى ناحية من النواحى التى فيها محاربوه ، انهزم أهل تلك الناحية ، فأستغوى بذلك الأعراب . ولما كان فى اليوم الذى قتل فيه يحيى بن زكرويه الملقب بالشيخ ، وانحازوا إلى أخيه الحسين بن زكرويه ، فطلب أخاه الشيخ فى القتلى ، فوجده ، فواراه وعقد الحسين بن زكرويه لنفسه وتسمى بأحمد بن عبد الله ، وتكنى بأبى العباس .

وعلم أصحاب بدر — الحمامى صاحب ابن طولون — بعد ذلك بقتل الشيخ ، فطلبوه فى القتلى فلم يجدوه ، ودعا الحسين بن زكرويه إلى مثل ما دعا

إليه أخوه ، فأجابه أهل أكثر البوادى وغيرهم من سائر الناس ، واشتدت شوكته وظهر . وصار إلى دمشق ، فذُكر أن أهلها صالحوه على خراج دفعوه إليه ، ثم انصرف عنهم ، ثم سار إلى أطراف حمْص ، فأطاعه أهلها ، وفتحوا له بابها خوفاً منه على أنفسهم فدخلها ، ثم سار منها إلى حَماة ، ومعرة النعمان وغيرهما ، فقتل أهلها ، وقتل النساء والأطفال ، ثم سار إلى بعلبك فقتل عامة أهلها حتى لم يبق منهم إلا اليسير ، ثم سار إلى سَلَمْية فحاربه أهلها ومنعوه الدخول ، ثم وادعهم وأعطاهم الأمان ، ففتحوا له بابها ، فدخلها ، فبدأ بمن فيها من بنى هاشم ، وكان بها منهم جماعة فقتلهم ، ثم ثنى بأهل سلمية فقتلهم أجمعين . ثم قتل البهائم ، ثم قتل صبيان الكتاتيب ، ثم خرج منها ، وليس بها عين تطرف ، وسار فيما حوالى ذلك من القرى يقتل ويَسْبى ويحرق ويُخيف السبيل .

فذكر عن متطّبب بباب المحوّل يُدعى أبا لحسن أنه قال : جاءتنى امرأة بعدما أدخل القرمطى صاحب الشامة وأصحابه بغداد ، فقالت لى : إنى أريد أن تعالج شيئاً فى كتفى ، قلتُ : وما هو ؟ قالت : جرح ، قلت : أنا كحّال ، وهنا هنا امرأة تعالج النساء ، وتعالج الجراحات ، فانتظرى مجيئها . فقعدت ، ورأيتها مكروبة كئيبة باكية ، فسألتها عن حالها ، وقلت ما سبب جراحتك ؟ فقالت : قصتى تطول ، فقلت : حدثينى بها وصادقينى ، وقد خلا ما كان عندى ، فقالت : كان لى ابن غاب عنّى ، وطالت غيبته ، وخلّف علىّ أخوات له ، فضقتُ واحتجت واشتقتُ إليه ، وكان شخص إلى ناحية الرّقة ، كلّ ذلك أطلبه ، وأسأل عنه ، فلمْ أدَلّ عليه ، فخرجتُ عن الرقة فى طلبه ، فوقعت فى عسكر القرمطى ، فجعلت أطوف وأطلبه ، فبينما أنا كذلك إذْ رأيتُه فتعلقت به ،

فقلت : ابني ! فقال : أمي ! فقلت : نعم ، قال : ما فعل أخواتي ؟ قلت : بخير وشكوت ما نالنا بعده من الضيق ، فمضى بي إلى منزله ، وجلس بين يدي ، وجعل يسئلني عن أخبارنا ، فخبرته ، ثم قال : دَعيني من هذا وأخبريني ما دينك؟ فقلت : يابني أما تعرفني ! فقال : وكيف لا أعرفك ! فقلت : ولِمَ تسألني من ديني وأنت تعرفني وتعرف ديني ! فقال كل ما كنا فيه باطل ، والدين ما نحن فيه الآن ، فأعظمتُ ذلك وعجبتُ منه ، فلما رآني كذلك خرج وتركني ثم وجّه إلى بخبز ولحم وما يصلحني ، وقال : أطبخيه ، فتركتُه ولم أمسّه ، ثم عاد فطبخه ، وأصلح أمر منزله ، فدق الباب داقٌ ، فخرج إليه فإذا رجل يسأله ويقول له : هذه القادمة عليك أن تُحسن أن تصلح من أمر النساء شيئاً ؟ فسألني فقلت : نعم ، فقال : امضي معي ، فمضيت فأدخلني داراً ، وإذا امرأة تطلق ، فقعدت بين يديها ، وجعلت أكلمها ، فلا تكلمني ، فقال لي الرجل الذي جاء بي إليها : ما عليك من كلامها ، أصلحي أمر هذه ، ودعَي كلامها ، فأقمتُ حتى ولدت غلاماً ، وأصلحتُ من شأنه ، وجعلت أكلمها وأتلطف بها وأقول لها : يا هذه ، لا تحتشميني ، فقد وجب حقّي عليك ، أخبريني خبرك وقصتك ومن والد هذا الصبي ، فقالت : تسألينني عن أبيه لتطالبيه بشيء يهبه لك ! فقلت: لا ، ولكن أحب أن أعلم خبرك ، فقالت لي : إني امرأة هاشمية ، ورفعت رأسها ، فرأيت أحسن الناس وجها ، وإن هؤلاء القوم أتونا فذبحوا أبي وأمي واخوتي وأهلي جميعا ، ثم أخذني رئيسهم ، فقمت عنده خمسة أيام ، ثم أخرجني فدفعني إلى أصحابه ، فقال : طهروها فأرادوا قتلي ، فبكيت . وكان بين يديه رجل من قواده ، فقال : هبها لي ، فقال : خذها ، فأخذني وكان بحضرته ثلاثة أنفس قيام من أصحابه فسلوا سيوفهم وقالوا : لا نسلمها إليك ، إما أن تدفعها إلينا وإلا قتلناها . وأرادوا قتلي ، وضجوا ، فدعاهم رئيسهم

القرمطى ، وسألهم عن خبرهم فخبروه ، فقال : تكون لكم أربعتكم ، فأخذونى فأنا مقيمة معهم أربعتهم ، والله ما أدرى ممن هو هذا الولد منهم ! قالت : فجاء بعد المساء رجل فقال لى : هنية فهنأته بالمولود ، فأعطانى سبيكة فضة ، وجاء آخر وآخر ، أهنىء كل واحد منهم فيعطينى سبيكة فضة ، فلما كان فى السحر جاء جماعة مع رجل وبين يديه شمع ، وعليه ثياب خزّ تفوح منه رائحة المسك فقال لى : هنية ، فقمت إليه فقلت : بيض الله وجهك ، والحمد لله الذى رزقك هذا الإبن ، ودعوت له فاعطانى سبيكة فيها ألف درهم ، وبات الرجل فى بيت ، وبت مع المرأة فى بيت ، فلما أصبحت قلت للمرأة يا هذه ، قد وجب عليك حقى ، فالله الله فىّ ، خلصينى ! فقالت : مم أخلصك ؟ فخبرتها خبر إبنى ، وقلت لها : إنى جئت راغبة إليه ، وأنه قال لى كيت وكيت ، وليس فى يدى منه شيء ، ولى بنات ضعاف خلفتهن بأسوأ حال فخلصينى من ها هنا لأصل إلى بناتى ، فقالت : عليك بالرجل الذى جاء آخر القوم فسليه ذلك فانه يخلصك ، فأقمتُ يومى إلى أن أمسيتُ ؛ فلما جاء تقدمتُ إليه ، وقبلتُ يده ورجله ، وقلتُ : ياسيدى قد وجب حقّى عليك ، وقد أغنانى الله على يديك بم أعطيتنى ، ولى بنات ضِعاف فقراء ، فإن أذَنت لى أن أمضى فأجيئك ببناتى حتى يخدمنك ويكن بين يديك ! فقال : وتفعلين ! قلت : نعم ، فدعا قوما من غلمانه . فقال : امضوا معها حتى تبلغوا بها موضع كذا وكذا ، ثم اتركوها وارجعوا . فحملونى على دبة ، ومضوا بى ، قالت : فبينما نحن نسير ، وإذا أنا يابنى يركض ، وقد كنا سرنا عشرة فراسخ فيما خبرنى به القوم الذين معى فلحقنى وقال : يا فاعلة ، زعمت أنك تمضين وتجيئين بناتك ! وسل سيفه ليضربنى ، فمنعه القوم ، فلحقنى طرف السيف ، فوقع فى كتفى ، وسل القوم سيوفهم ، فأردوه ، فتنحى عنى . وساروا بى حتى بلغوا بى الموضع الذى سماه

لهم صاحبهم ، فتركوني ومضوا ، فتقدمت إلى ها هنا وقد طفت لعلاج جرحي فوصف لي هذا الموضع ، فجئت إلى ها هنا . قالت : ولما قدم أمير المؤمنين بالقرمطي وبالأسارى من أصحابه خرجت لأنظر إليهم ، فرأيت إبني فيهم على جمل ، عليه برنس وهو يبكي وهو فتى شاب ، فقلت له : لا خفف الله عنك ولا خلصك ! قال المتطبب : فقمت معه إلى المتطببة لما جاءت ، وأوصيتها بها ، فعالجت جرحها وأعطتها مرهما ، فسألت المتطببة عنها بعد منصرفها ، فقالت : قد وضعت يدي على الجرح ، وقلت : انفحي ، فنفحت فخرجت الريح من الجرح من تحت يدي ، وما أراها تبرأ منه ، ومضت فلم تعد إلينا .

ويذكر الطبري أن الخليفة المكتفي ولليلتين خلتا من شهر رمضان سنة ٢٩٠هـ أمر بإعطاء الجند أرزاقهم والتأهب للشخوص لحرب القرمطي بناحية الشام ، فأطلق للجند في دفعة واحدة مائة ألف دينار ، وذلك أن أهل مصر كتبوا إلى المكتفي يشكون ما لقوا من ابن زكرويه المعروف بصاحب الشامة ، وأنه قد خرب البلاد ، وقتل الناس ، وما لقوا من أخيه قبله وقتلهم رجالهم ، وأنه لم يبق منهم إلا العدد اليسير .

وللنصف من شهر رمضان مضى أبو الأغر إلى حلب ، فنزل وادي بطنان قريبا من حلب ، ونزل معه جميع أصحابه ، فنزع جماعة من أصحابه ثيابهم ، ودخلوا الوادي يتبردون بمائة ، وكان يوما شديد الحر ، فبينما هم كذلك إذ وافى جيش القرمطي المعروف بصاحب الشامة ، وقد بدرهم المعروف بالمطوق ، فكبسهم على تلك الحال ، فقتل منهم خلقا كثيرا وانتهب العسكر ، وأفلت أبو الأغر في جماعة من أصحابه ، فدخل حلب ، وأفلت معه مقدار ألف رجل ،

وكان فى عشرة آلاف بين فارس وراجل ، وكان قد ضم إليه جماعة ممن كان على باب السلطان من قواد الفراغنة ورجالهم ، فلم يفلت منهم إلا اليسير ، ثم صار أصحاب القرمطى إلى باب حلب ، فحاربهم أبو الأغر ومن بقى معه من أصحابه وأهل البلد ، فانصرفوا عنه بما أخذوا من عسكره من الكراع والسلاح والأموال والأمتعة بعد حرب كانت بينهم ، ومضى المكتفى بمن معه من الجيش حتى انتهى إلى الرقة ، فنزلها ، وسرح الجيوش إلى القرمطى جيشا بعد جيش .

وقد ذكر الطبرى فى تاريخه إلى أنه لليلتين خلتا من شهر شوال ورد مدينة السلام كتاب من القاسم بن عبيد الله ، يخبر فيه أن كتابا ورد عليه من دمشق من بدر الحمامى صاحب ابن طولون ، يخبر فيه أنه واقع القرمطى صاحب الشامة فهزمه ، ووضع فى أصحابه السيف ، ومضى من أفلت منهم نحو البادية ، وأن أمير المؤمنين وجه فى أثره الحسين بن حمدان بن حمدون وغيره من القواد .

وورد أيضا فى هذه الأيام كتاب من البحرين من أميرها ابن بانوا ، يذكر فيه أنه كبس حصنا للقرامطة ، فظفر بمن فيه . ولثلاث عشرة خلت من ذى القعدة ورد كتاب آخر من ابن بانو من البحرين ، يذكر فيه أنه واقع قرابة لأبى سعيد الجنابى ، وولى عهده من بعده على أهل طاعته ، فهزمه ، وكان مقام هذا المهزوم بالقطيف فوجد بعدما انهزم أصحابه قتيلا بين القتلى ، فاحتز رأسه ، وأنه دخل القطيف فافتتحها .

أما فى سنة ٢٩١هـ فقد ذكر الطبرى خبر الواقعة بين أصحاب السلطان وصاحب الشامة . قال أبو جعفر : قد مضى ذكرى شخوص المكتفى من مدينة

السلام نحو صاحب الشامة لحربه ومصيره إلى الرقة ، وبث جيوشه فيما بين حلب وحمص ، وتوليته حرب صاحب الشامة محمد بن سليمان الكاتب وتصييره أمر جيشه وقواده إليه ، فلما دخلت هذه السنة كتب وزيره القاسم بن عبيد الله إلى محمد ابن سليمان وقواد السلطان يأمره وإياهم بمناهضة ذى الشامة وأصحابه ، فساروا إليه حتى صاروا إلى موضع بينهم وبين حَماة اثنا عشر ميلاً ، فلقُوا به أصحاب القرمطى فى يوم الثلاثاء لست خَلَوْن من المحرم ، وكان القرمطى قدم أصحابه وتخلف هو فى جماعة من أصحابه ، ومعه مالٌ قد كان جمعه ، وجعل السواد وراءه ، فالتحمت الحرب بين أصحاب السلطان وأصحاب القرمطى ، وقتلوا ، وأسِرَ من رجالهم بشرٌ كثير ، وتفرق الباقون فى البوادى ، فلما رأى القرمطى ما نزل بأصحابه من الفلول والهزيمة حمل أخا له يكنى أبا الفضل مالا ، وتقدم إليه أن يلحق بالبوادى إلى أن يظهر فى موضع فيصير إليه ، وركب هو وابن عمه المسمى المدثّر والمطوق صاحبه وغلام له رومى . وأخذ دليلاً ، وسار يريد الكوفة عرَضًا فى البرية ، حتى انتهى إلى موضع يعرف بالدالية من أعمال طريق الفُرات ، فنفذ ما كان معهم من الزاد والعلف ، فوجه بعض من كان معه ليأخذ له ما يحتاجون إليه ، فدخل الدالية المعروفة بدالية ابن طَوْق لشراء حاجةٍ ، فأنكروا زيه ، وسُئل عن أمره فمجمج الرجل فى خبره : لم يُبِنْهُ — ، فأعلم المتولى مسلحة هذه الناحية بخبره ، وهو رجل يعرف بأبى خُبْزَة خليفة أحمد بن محمد بن كُشْمَرْد عامل أمير المؤمنين المكتفى على المعاون بالرحبة وطريق الفرات . فركب فى جماعة ، وسأل هذا الرجل عن خبره ، فأخبره أن الشامة خلف رابية هنالك فى ثلاثة نفر .

فمضى إليهم ، فأخذهم وصار بهم إلى صاحبه ، فتوجه بهم ابن كُشمرد وأبو خبزة إلى المكتفى بالرقة ، ورجعت الجيوش من الطلب بعد أن قتلوا وأسروا جميع من قدروا عليه من أولياء القرمطى وأشياعه ، وكتب محمد بن سليمان إلى الوزير بالفتح قائلاً :

بسم الله الرحمن الرحيم . قد تقدّمت كتبى إلى الوزير أعزه الله فى خبر القرمطى اللعين وأشياعه ، بما أرجو أن يكون قد وصل إن شاء الله . ولما كان فى يوم الثلاثاء لست ليال خلون من المحرم رحلتُ من الموضع المعروف بالقروانة نحو موضع يعرف بالعليانة ، فى جميع العسكر من الأولياء ، وزحفنا بهم على مراتبهم فى القلب والميمنة والميسرة وغير ذلك ، فلم أبعد أن وافانى الخبر بأن الكافر القرمطى أنفذ النعمان ابن أخى إسماعيل بن النعمان أحد دعاته فى ثلاثة آلاف فارس ، وخلق من الرجالة ، وإنه نزل بموضع يعرف بتمنع ، بينه وبين حماة اثنا عشر ميلاً ، فاجتمع إليه جميع من كان بمعرة النعمان وبناحية الفصيصى وسائر النواحى من الفرسان والرجالة ، فأسررت ذلك عن القوّاد والناس جميعاً ولم أظهّره ، وسألت الدليل الذى كان معى عن هذا الموضع ، وكم بيننا وبينه فذكر أنه ستة اميال ، فتوكلت على الله عزّ وجلّ ، وتقدمت إليه فى المسير نحوهفمال بالناس جميعاً ، وسرنا حتى وافيت الكفرة ، فوجدتهم على تعبئة ، ورأينا طلائعهم . فلما نظروا إلينا مقبلين زحفوا نحونا ، وسرنا إليهم ، فافترقوا ستة كراديس ، وجعلوا على ميسرتهم — على ما أخبرنى من ظفرتُ به من رؤسائهم — مسروراً العُليصى وأبا الحمل وغلام هارون العُليصى ، وأبا العذاب ورجاء وصافى وأبا يعلى العلوى ، فى ألف وخمسمائة فارس ، وكمنوا كميناً فى أربعمائة فارس خلف ميسرتهم بإزاء ميمنتنا ، وجعلوا فى القلب النعمان العُليصى والمعروف بأبى الحَطّى ، والحمارىّ وجماعة من بطلائهم فى ألف وأربعمائة فارس

وثلاثة آلاف راجل ، وفى ميمنتهم كلياً العليصى والمعروف بالسديد العليصى والحسين بن العليصى وأبا الجراح العليصى وحميد العليصى وجماعة من نظرائهم فى الف وأربعمائة فارس ، وكمنوا مائتى فارس ، فلم يزالوا زِفًا إلينا ونحن نسير نحُوهم غير متفرقين ، متوكلينعلى الله عز وجل ، وقد استحثثتُ الأولياء والغلمان وسائر الناس غيرهم . ووعدتهم . فلما رأى بعضنا بعضاً حمل الكردوس الذى كان فى ميسرتهم ضرباً بالسياط ، فقصد الحسين بن حمدان ، وهو فى جناح الميمنة ، فاستقبلهم الحسين ، بوجهه وبموضعه من سائر أصحابه برماحهم ، فكسروها فى صدورهم ، فانفلّوا عنهم ، وعاود القرمطة الحمل عليهم ، فأخذوا السيوف ، واعترضوا ضرباً للوجوه فصُرع من الكفار الفجرة ستمائة فرس فى أول وقعة ، وأخذ أصحاب الحسين خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضة ، وولّوا مدبرين مفلولين ، واتّبعهم الحسين ، فرجعوا عليه ، فلم يزالوا حملة وحملة ، وفى خلال ذلك يصرع منهم الجماعة بعد الجماعة ، حتى أفناهم الله عز وجل ، فلم يفلت منهم إلا أقل من مائتى رجل .

وحمل الكردوس الذى كان فى ميمنتهم على القاسم بن سيما ويُمْن الخادم ومن كان معهما من بنى شيبان وبنى تميم ، فاستقبلوهم بالرماح حتى كسروها فيهم ، واعتنق بعضُهم بعضاً ، فقتل من الفجرة جماعة كثيرة . وحمل عليهم فى وقت حملتهم خليفة بن المبرك ولؤلؤ ، وكنت قد جعلته جناحاً لخليفة فى ثلثمائة فارس ، وجميع أصحاب خليفة ، وهم يعاركون بنى شيبان وتميم ، فقتل من الكفرة مقتلة عظيمة ، واتبعوهم ، فأخذ بنو شيبان منهم ثلثمائة فرس ومائة طوق ، وأخذ أصحاب خليفة مثل ذلك ، وزحف النعمان ومن معه فى القلب إلينا ، فحملتُ ومن معى ، وكنت فى القلب والميمنة ، وحمل خاقان

ونصر القشورى ومحمد بن كُمُشجُور ومن كان معهم فى الميمنة ، ووصيف مُوشكير ومحمد بن إسحاق بن كُنداجيق وابنا كَيْغلَغ والمبارك القمّى وربيعة بن محمد ومهاجر بن طليق والمظفر بن حاج وعبد الله بن حمدان وحىّ الكبير ووصيف البكتمرىّ ومحمد بن قَراطُغان .

وكان فى جناح الميمنة جميعُ من حمل على من فى القلب ومن انقطع ممن كان حمل على الحسين بن حمدان ، فلم يزالوا يقتلون الكفار فرسانهم ورجالتهم حتى قتلوا أكثر من خمسة أميال . ولما أن تجاوزت المصافّ بنصف ميل خفتُ أن يكون من الكفار مكيدة فى الإحتيال على الرجالة والسواد ، فوقفتُ إلى أن لحقونى . وجمعت الناس إلىّ وبين يدى المطرد المبارك ، مطرد أمير المؤمنين ، وقد حملت فى الوقت الأول ، وحمل الناس . و لم يزل عيسى النوشرى ضابطاً للسواد من مصاف خلفهم مع فرسانه ورجّالته على ما رسمته له . لم يَزُل من موضعه إلى أن رجع الناس جميعاً إلىّ من كل موضع ، وضربت مضربى فى الموضع الذى وقفت فيه ، حتى نزل الناس جميعاً ، و لم أزل واقفاً إلى أن صليت امغرب ، حتى استقر العسكر بأهله ، ووجهت فى الطلائع ثم نزلت ، وأكثرت حم الله على ما هنّأنا به من النصر ، و لم يُبق أحد من قواد أمير المؤمنين وغلمانه ولا العجم وغيرهم غاية فى نصر هذه الدولة المباركة فى المناصحة لها إلا بلغوها .

ولما استراح الناس خرجت والقواد جميعاً لنقيم خارج العسكر إلى أن يصبح الناس خوفاً من حيلة تقع ، وأسأل الله تمام النعمة وإبزاع الشكر ، وأنا أعز الله سيدنا الوزير راحل إلى حَماة ، ثم أشخص إلى سلمية بمنَ الله تعالى وعونه ، فمن بقىَ من هؤلاء الكفار مع الكافر فهم بسلمية ، فإنه قد صار إليها

منذ ثلاثة أيام ، وأحتاج إلى أن يتقدم الوزير بالكتاب إلى جميع القـواد وسـائر بطون العرب من بنى شيبان وتغلب وتميم ، بجزيهم جميعاً الخير على ما كـان فى هذه الوقعة ، فما بقّىَ أحد منهم غاية ، والحمد لله على ما تفضل بـه ، وإيـاه أسأل تمام النعمة .

ولما تقدمت فى جمع الرءوس ، وجد رأس أبى الحمل ورأس أبى العـذاب وأبى البغل ، وقيل إن النعمان قد قُتِل ؛ وقد تقدمت فى طلبه ، وأخذ رأسه مـع رأسه وحمله مع الرؤوس إلى حضرة أمير المؤمنين إن شاء الله ز

وفى يوم الاثنين لأربع بقين من المحرم ، أدخل صاحب الشامة إلى الرقـة ظاهراً للناس على فالج — البعير ذو السنمين — ، عليه برنس حرير ودرّاعيـة ديباج ، وبين يديه المدثّر والمطوق على جملـين .

ثم أن المكتفى خلّف عساكره مع محمد بن سليمان ، وشخص فى خاصته وغلمانه وخدمه ، وشخص معه القاسم بن عبيد الله من الرقة إلى بغداد وحمـل معه القرمطي والمدثر والمطوق وجماعة من أسارى الوقعة ، وذلك فى أول صفـر من هذه السنة ٢٩١هـ .

فلما صار إلى بغداد عزم على أن يدخل القرمطى مدينة السلام مصلوبـاً على دَقَل — خشبة طويلة — ، والدقل عى ظهر فيل ، فـأمر بهـدم طاقـات الأبواب التى يجتاز بها الفيل ، إن كانت أقصر من الدَّقل ، وذلك مثـل بـاب الطاق وباب ارصافة وغيرهما .

ثم استسمج المكتفى فعل ما كان عزم عليه من ذاك فعمل له دميانـــة ـــ غلام يازمان ـــ كرسياً ، وركّب الكرسى على ظهر الفيل ، وكان إرتفاعه عـن ظهر الفيل ذراعين ونصف ذراع ، ودخل المكتفى مدينة السلام بغداد صبيحـــة الاثنين لليلتين خلَتا من شهر ربيع الأول ، وقُدّم الأسرى بين يديه علـــى جمـــال مقيدين ، عليهم دراريع حرير وبرانس حرير ـــ الدُّرْعُ : لَبوسُ الحديدِ ، وهـــو أيضاً نوع من الثياب ، و البرنس كل ثوب رأسه منه ملتزق به ، دراعة كـــان أو جبة والبُرْنسُ أيضاً قَلَنسُوَةٌ طويلة وكان النساك يلبسونها فى صدر الإســـلام ـــ، والمطوق فى وسطهم ، غلام ما خرجت لحيته ، قد جُعل فى فيه خشبة مخروطـة ، وشُدّت إلى قفاه كهيئة اللجام وذلك لأنه لما أدخل الرقة كان يتم الناس إذا دعـوا عليه ، ويبزق عليهم فَفُعل ذلك به لئلا يشتم إنساناً .

ثم أمر المكتفى ببناء دكة فى المصلّى من الجـــانب الشـــرقىّ ، تكســـيرها عشرون ذراعاً فى عشرين ذراعاً ، وارتفاعها نحو من عشرة أذرع ، وبـــنى لهـــا درج يصعد منها إليها ، وكان المكتفى خلّف محمد بن سليمان من كان فى تلـك الناحية من قواد القرمطى وقضاته وأصحاب شُرَطه ، فأخذهم وقيدهم ن وانحـدر والقواد الذين تخلفوا معه إلى مدينة السلام على طريق الفرات ، فـــوافى بـــاب الأنبار ليلة الخميس لاثنتى عشرة خلت من شهر ربيع الأول ، ومعه جماعة مـــن القواد ، منهم خاقان المفلحىّ ومحمد بن إسحاق بن كندجيق وغيرهمـــا : فـــأمر القواد الذين ببغداد بتلقى محمد بن سليمان والدخول معه ، فدخل بغداد وبـــين يديه نيف وسبعون أسيراً ، حتى صار إلى الثريا ، فخُلع عليه ، وطوق بطوق مـــن ذهب وسُوِّر بسوارَين من ذهب ، وخُلع على جميع القـــواد القدمـــين معـــه ، وطوقوا وسُوِّروا وصُرفوا إلى منازلهم ، وأمِر بالأسرى إلى السجن .

وذكر عن صاحب الشامة أنه أخذَ وهو في حبس المكتفي سُكُرّجة — هي إناء صغير يؤكل فيه الشيءُ القليلُ من الأُدْمِ ، وهي فارسيَّةٌ — من المائدة التي تدخل إليه فكسرها ، وأخذ شظّية منها فقطع بها بعض عروق نفسه ، فخرج منه دم كثير ، ثم شَدّ يده . فلما وقف المولّى خدمته على ذلك سأله : لِمَ فعل ذلك ؟ فقال : هاج بي الدم فأخرجته . فترك حتى صلح ، ورجعت إليه قوته .

ولما كان يوم الاثنين لسبع بقين من شهر ربيع الأول أمر المكتفي القواد والغلمان بحضور الدكة التي أمر ببنائها ، وخرج من الناس خلق كثير حضورها فحضروها ، وحضر أحمد بن محمد الواثقي وهو يومئذ يلي الشرطة بمدينة السلام ومحمد بن سليمان كاتب الجيش الدكة ، فقعدا عليها ، وحمل الأسرى الذين جاء بهم المكتفي من الرقة والذين جاء بهم محمد بن سليمان ومن كان في السجن من القرامطة الذين جمعوا من الكوفة ، وقوم من أهل بغداد كانوا على رأى القرامطة ، وقوم من الرّفوغ — أرفاغ الناس : ألأمُهُم وسُفّالُهُمْ ، والرفغ : ألأمُ موْضع في الوادي وشره تُراباً — من سائر البلدان من غير القرامطة وكانوا قليلاً فجئ بهم على جمال ، وأحضروا الدكة ، ووقفوا على جمالهم ، ووكل بكل رجل منهم عونان ، فقيل أنهم كانوا ثلثمائة ونيفاً وعشرين ، وقيل ثلثمائة وستين ، وجئ بالقرمطي الحسين بن زكروية المعروف بصاحب الشلمة ، ومعه ابن عمه المعروف بالمدثر على بغل في عماريّة — هودج يجلس فيه — ، وقد أرسل عليهما الغشاء ، ومعهما جماعة من الفرسان والرجالة ، فصعد بهما إلى الدكة وأقعدا ، وقدّم أربعة وثلاثون إنساناً من هؤلاء الأسارى ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وضُربت أعناقهم واحداً بعد واحد ، كان يؤخذ الرجل فيبطح على وجهه فيقطع يمنى يديه ، ويحلّق بها إلى أسفل ليراها الناس ، ثم تُقطع

رجله اليسرى ، ثم يسرى يديه ، ثم يمنى رجليه ، ويرمى بما قطع منه إلى أسفل ، ثم يقعد فيمدّ رأسه ، فيضرب عنقه ، ويرمى برأسه وجثته إلى أسفل . وكانت جماعة من هؤلاء الأسرى قليلة يضجون ويستغيثون ، ويحلفون أنهم ليسوا من القرامطة .

فلما فرغ من كل هؤلاء الأربعة والثلاثين النفس وكانوا من وجوه القرمطى ، وكبرائهم قُدّم المدثر ، فقطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه ن ثم قدم القرمطى فضُرب مائتى سوط ، ثم قطعت يداه ورجلاه ، وكوِىَ فغُشِىَ عليه ، ثم أخذ خشب فأضرمت فيه النار ، ووضع فى خواصره وبطنه ن فجعل يفتح عينيه ثم يغمضها ؛ فلما خافوا أن يموت ضُربت عنقه ، ورفع رأسه على خشبة ، وكبّر من على الدكة وكبر سائر الناس . فلما قُتل انصرف القواد ومن كان حضر ذلك الموضع للنظر إلى ما يفعل بالقرمطى . وأقام الواثقى فى جماعة من أصحابه فى ذلك الموضع إلى وقت العشاء الآخرة ، حتى ضُرب الذين أحضروا الدكة ؛ ثم انصرف .

فلما كان من غد هذا اليوم حملت رءوس القتلى من المصلى إلى الجسر وصلب بدن القرمطى فى طرف الجسر الأعلى ببغداد ، وحفرت لأجساد القتلى فى يوم الأربعاء آبار إلى جانب الدكة ، وطرحت فيها وطمت ، ثم أمر بعد أيام بهدم الدكة ففعل .

ولأربع عشرة خلت من شهر ربيع الآخر وافى بغداد القاسم بن سيما منصرفاً عن عمله بطريق الفرات ، ومعه رجل من بنى العليص من أصحاب

القرمطى صاحب الشامة ، دخل إليه بأمان وكان أحد دعاة القرمطى يكنى أبا محمد ، وكان سبب دخوله فى الأمان أن السلطان راسله ووعده الإحسان إن هو دخل فى الأمان ، وذلك انه لم يكن بقى من رؤساء القرامطة بنواحى الشام غيره وكان من موالى بنى العليص ، فر وقت الوقعة إلى بعض النواحى الغامضة ، فأفلت ثم رغب فى الدخول فى الأمان والطاعة خوفاً على نفسه ، فوافى هو ومن معه مدينة السلام وهم نيف وستون رجلاً ، فأمنوا وأحسن إليهم ووصلوا بمال حمل إليهم ، وأخرج هو ومن معه إلى رحبة مالك بن طوق مع القاسم بن سيما وأجريت لهم الأرزاق فلما وصل القاسم بن سيما إلى عمله وهم معه أقاموا معه مدة ، ثم أجمعوا عى الغدر بالقاسم بن سيما وتئتمروا به ، ووقف عى ذلك من عزمهم ، فبادرهم ووضع السيف فيهم فأبارهم ، وأسر جماعة منهم ، فارتدع من بقى من بنى العليص ومواليهم ، وذلوا ، ولزموا أرض السماوة وناحيتها مدة حتى راسلهم الخبيث زكرويه وأعلمهم أن مما أوحى إليه ، أن المعروف بالشيخ وأخاه يقتلان ، وأن إمامة الذى يوحى إليه يظهر بعدهما ويظفر .

ويذكر الطبرى ضمن حوادث سنة ٢٩٣ هـ عن ظهور أخى الحسين بن زكرويه إذ يقول : أن أخاً للحسين بن زكرويه المعروف بصاحب الشامة ظهر بالدالية من طريق الفرات فى نفر ، وأنه اجتمع إليه نفر من الأعراب المتلصصة ، فسار بهم نحو دمشق على طريق البر ، وعاث بتلك الناحية وحارب أهلها ، فندب للخروج إليه الحسين بن حمدان بن حمدون فخرج فى جماعة كثيرة من الجند ، فكان مصير هذا القرمطى إلى دمشق فى جمادى الأولى من هذه السنة . ثم ورد الخبر أن هذا القرمطى صار إلى طبرية فامتنعوا من إدخاله ، فحاربهم حتى دخلها فقتل عامة من بها من الرجال والنساء ونهبها وإنصرف إلى ناحية البادية .

وفى شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٣ هـ ورد الخبر بان الداعية الذى بنواحى اليمن صار إلى مدينة صنعاء فحاربه أهلها ، فظفر بهم ، فقتل أهلها ، فلم ينفلت منهم إلا القليل ، وتغلب على سائر مدن اليمن .

ثم عاد الطبرى إلى ما كان من أمر أخى ابن زكرويه ، فذكر عن محمد ابن داود بن الجراح أنه قال : انفذ زكرويه بن مهرويه بعدما قتل ابنه صاحب الشامة رجلاً كان يعلم الصبيان بقرية تدعى الزابوقة من عمل الفلوجة يسمى عبد الله بن سعيد ، ويكنى أبا غانم ، فتسمى نصراً ليعمى أمره ، فدار على إحياء كلب يدعوهم إلى رأيه فلم يقبله منه أحد سوى رجل من بنى زياد ، يسمى مقدام بن الكيال ، فانه إستغوى له طوائف من الأصبغيين المنتمين إلى الفواطم وسواقط من العليصيين وصعاليك من سائر بطون كلب ، وقصد ناحية الشام ، وعامل السلطان على دمشق والأردن أحمد بن كيغلغ وهو مقيم بمصر على حرب ابن خليج ، الذى كان خالف محمد بن سليمان ورجع إلى مصر فغلب عليها فاغتنم ذلك عبد الله بن سعيد هذا وسار إلى مدينتى بصرى وأذرعات من كورتى حوران والبثينية ، فحارب أهلها ثم أمنهم فلما استسلموا قتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم ، وإستصفى أموالهم ثم سار يوم دمشق ، فخرج إليه جماعة ممن كان مرسوماً بتشحينها من المصريين كان خلفهم أحمد بن كيغلغ مع صالح بن الفضل فظهروا عليهم وأسخنوا فيهم ثم إغتروهم ببذل الأمان لهم فقتلوا صالحاً وقضوا عسكره و لم يطمعوا فى مدينة دمشق ، وكانوا قد صاروا إليها فدافعهم أهلها عنها فقصدوا نحو طبرية مدينة جند الأردن ، ولحق بهم جماعة افتتنت من الجند بدمشق فواقعهم يوسف بن إبراهيم بن بغاردى عامل أحمد بن كيغلغ على

الأردن فكسروه وبذلوا الأمان له ثم غدروا به فقتلوه ونهبوا مدينة الأردن وسبوا النساء وقتلوا طائفة من أهلها فأنفذ السلطان الحسين بن حمدان لطلبهم ووجوهاً من القواد فورد دمشق وقد دخل أعداء الله طبرية ، فلما إتصل خبره بهم عطفوا نحو السماوة ، ونهب القرامطة قرية هيت وأحرق المنازل وإنتهب السفن التى بالفرات وقتل من أهل البلد زهاء مائتى نفس ما بين رجل وإمرأة ، وأخذ ما قدر عليه من الأموال والمتاع ثم رحل عنها حتى قرب منهم محمد بن إسحق فلما أحس الكلبيون بإشراف الجند يهم إئتمروا بعدو الله المسمى نصراً فوثبوا عليه وفتكوا به فاحتزوا رأسه وأدخلوه مدينة السلام وإقتتلت القرامطة بعده حتى وقعت بينهما الدماء .

وكتب السلطان إلى حسين بن حمدان فى إجتثاث أصول القرامطة بنواحى عين التمر ، فأنفذ زكرويه إليهم داعية له من أهل السواد يسمى القاسم بن أحمد ابن على ، ويعرف بأبى محمد فعلمهم أن فعل الذئب بن القائم قد أنكره عنهم ، وثقل قلبه عليهم وأنهم قد ارتدوا عن الدين ، وان وقت ظهورهم قد حضر ، وقد بايع له بالكوفة أربعون ألف رجل ، وفى سوادها أربعمائة ألف رجل وأن زكروية يأمرهم أن يخفوا أمرهم ويظهروا الإنقلاع نحو الشام ، ويسيروا نحو الكوفة وأن يحملوا القاسم بن أحمد معه فامتثلوا أمره ووافوا باب الكوفة فأوقعوا بمن لحقوه من العوام وقتلوا نحواً من عشرين ألفاً وبادر الناس إلى الكوفة فدخلوها فنهض إسحق بن عمران فى أصحابه فاجتمعت العوام وجماعة من أصحاب السلطان فرموهم بالحجارة وأخرجوهم من المدينة وخرج اسحق ومن معه من الجند فصافوا القرامطة الحرب فانهزمت القرامطة نحو القادسية . وكان

زكرويه قد كمن لأصحاب السلطان فانتهب السواد ووضع القرمطى وأصحابه السيف فى أصحاب السلطان فقتلوهم حيث شاءوا .

وفى سنة ٢٩٤ هـ ولاثنتى عشرة خلت من محرم ورد الخبر مدينة السلام أنْ زكروية بن مهروية القرمطى إرتحل من الموضع المعروف بنهر المثنية ، يريد الحاج وانه وافى موضعاً بينه وبين واقصة أربعة أميال وقصد زكرويه الحجاج المنصرفين عن مكة فقتلوا الرجال والنساء وسبوا من النساء من أرادوا ، وقيل انه كان فى القافلة من الحجاج زهاء عشرين ألف رجل قتل جميعهم غير نفر يسير ، وذكر الطبرى أن الذى أخذوه من المال والأمتعة فى هذه القافلة قيمة ألفى ألف دينار . وفى سنة ٢٩٥ هـ توفى المكتفى بالله وبويع لجعفر بن المعتضد بالله الملقب بالمقتدر بالله وهو يومئذ بن ثلاث عشر سنة ، وفى سنة ٢٩٦ هـ خلع المقتدر وبايعوا عبد الله بن المعتز ولقبوه الراضى بالله . وفى سنة ٣١٩ هـ وفى شهر شعبان ورد الخبر بأن القرامطة ساروا إلى الكوفة وأقاموا بها خمسة وعشرين يوماً ، وقتلوا بها خلقاً كثيراً من بنى نمير ونهبوا المخازن ، وفى هذه السنة أيضاً وصل زكرى الخراسانى إلى عسكر سليمان بن أبى سعيد الجنابى فحازله عليهم من الحيلة ما افتضحوا به وعبدوه .

وكان السبب فى وصوله إليهم أن القرامطة لما إنتشروا فى سواد الكوفة وإنتهوا إلى قصر بن هبيرة فأسروا جماعة من الناس فأسر زكريا هذا فيمن أسر وملكه بعض المترأسين عليهم فلما أراد الإستخدام به تمنع عليه وأسمعه ما كره ، فلما نظر إلى قوة كلامه وأنهى خبره إلى الجنابى سليمان فأحضره وسمع كلامه ودان له ، وأمر أصحابه أن يدينوا له ويتبعوا أمره وحمله فى قبة وستره عن الناس

وشغل خبره القرامطة وانصرفوا به راجعين إلى بلادهم وهم يعتقدون أنه يعلم الغيب ويطلع على ما فى صدورهم .

وفى سنة ٣١٢ هـ ورد الخبر بأن أبا طاهر بن أبى سعيد الجنابى ورد الهبير - رمل فى طريق مكة - لمهاجمة حجاج سنة إحدى عشرة وثلثمائة فى رجوعهم ،فأوقع بقافلة بغدادية ، وأقام بقية القوافل بعيداً ، فلما فنيت أزوادهم ارتحلوا ، فأشار أبو الهيجاء ، وإليه طريق الكوفة وطريق مكة ، أن يعدل بهم إلى وادى القرى ، فامتنعوا وسارو ، فسارمعهم مخاطراً حتى بلغ الهبير ، فلقيهم أبو طاهر ، فقتل منهم خلقاً ، وأسر أبو الهيجاء وأحمد بن بدر عم السيدة أم المقتدر وجماعة من خدم السلطان وحَرَمِه .

وفى سنة ٣١٧هـ ندب المقتدر بالله مونس المظفر للخروج إلى الرقة ، لما وصل الخبر باستيلاء القرمطر على الرحبة وقتله أهلها ، ورهبت الأعراب أبا طاهر القرمطى حتى كانو يتطايرون عند سماع ذكره ، وجعل على كل بيت منهم ديناراً بعد أن نهبهم .

ثم عاود القرمطى هيت ، فلم يقدر عليها ، فأتى الكوفة ، وجاء إلى قصر ابن هبيرة ـ ينسب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة ـ ، فخرج إليه نصر ثم انصرف القرمطى دون قتال وتوفى بعد ذلك سنة٣٣٢هـ .

وفى سنة ٣٣٩ هـ ، رُدّ لقرامطة الحجر الأسود إلى مكة ، وكان بين قلعه ورده اثنتان وعشرون سنة ، وكان بجكم قد بذل لهم إن ردوه خمسين ألف دينار ، فلم يجيبوه .

وفى سنة ٣٦٥هـ توفى المعز الفطمى بمصر وقام ابنه نزار مقامه ، ولقب بالعزيز ، فكاتب الفكتكين بالاستمالة فأغلظ له فى جوابه وعاضد الحسن بن أحمد القرمطى وحاصرا جوهر قائد العزيز فى عسقلان حتى خرج منها جوهر بأمان ، وأنفذ جوهر إلى الفكتكين مالا ، فاجتهد القرمطى بالفكتكين أن يغدر ، فلم يفعل فخرج جوهر وشرح لصاحبه الفكتكين الحال ، فأمر بإخرج المال ، وإثبات الرجال ، وسار جوهر على مقدمته ، واستصحب توابيت آبائه . ولما عرف الفكتكين ، والقرمطى الحال ، عاد إلى الرملة واحتشد وتقارب العسكران ، واصطفا للقتال وجال الفكتكين بين الصفين ، فطعن وضرب .

فعلا العزيز على رابية وحاول مصالحة الفكتكين ، غير أن الأخير لم يركن إلى المصالحة وتجددت الحرب فالهزم الفكتكين والقرمطى ووضع السيف فى عسكرهما ، فقتل منه عشرين ألف رجل .

وهرب القرمطى .ثم عفا العزيز عنه ، وأقام بطبرية ، وجعل له سبعين ألف دينار فى كل سنة ، وتوجه إليه جوهر ، وقاضى الرملة فاستخلفاه .

أما المسعودى وهو على بن عبد بن مسعود ، فقد نشأ فى بغداد ، تـوفى سنة (٣٤٦هـ / ٩٥٧م) فى الفسطاط ، وهو من نسل عبد الله ابن مسعود ، رحل المسعودى فى طلب العلم إلى أقصى البلاد ، فطاف فارس وكرمان سـنة ٣٠٩هـ حتى استقر فى إصْطَخَرَ ، وفى السنة التالية قصـد الهند إلى ملتـان والمنصورة ، ثم رحل إلى كنباية فى سيلان ، ومن هناك ركب البحـر إلى بـلاد الصين، وطاف البحر الهندى ثم رحل إلى عمان ، ورحل رحلة أخـرى سـنة ٣١٤ هـ إلى ما وراء أذربيجان وجُرْجان ثم إلى الشام وفلسـطين وفى سـنة ٣٣٢هـ جاء إلى أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق واستقر أخـيراً بمصـر ، ونزل الفسطاط سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م .

وتشير الروايات إلى أن المسعودى لم يفْـتُرْ فى أثنـاء أسـفاره عـن الإستقصاء والبحث واكتساب العلوم على اختلاف مواضيعها ، فجمـع مـن الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد ، وألـف كتـب عديـدة فى مواضيع شتى ، وأهمها فى التاريخ ، وقد استن فى تأليف التاريخ سـنة جديـدة فصار لا يرتب الحوادث على حسب السنين الهجرية بل جمعـها تحـت رءوس موضوعات من الشعوب والملوك والأسرات . وقد تبعه فى هذا النـهج بعـض المؤرخين مثل ابن خلدون .

ومن أشهر مؤلفات المسعودى ما يلى :

١-مروج الذهب ومعادن الجوهر : وهو كتاب تاريخي جغرافي عظيـم القيمة ، وفى خلال هذا الكتاب فوائد كثيرة لانجدها فى سواه ، ويظهر مما جـاء فى مقدمته أنه نقل هذا الكتاب من عشرات الكتب التاريخية وغيرهـا كـانت

موجودة فى أيامه لم يصلنا منها إلا بضعة قليلة كتاريخ الطبرى وفتوح البلـــدان للبلاذُرِى، وأما الباقى فقد ضاع ، وفيه عشرات من من كتب التاريخ والسياســة والإجتماع .

وقد تطرق المسعودى فى كتابه هذا إلى ذكر مبدأ الخلق وقصص الأنبيــاء مختصراً ، ثم وصف البحار والأرض وما فيها مــن العجــائب ، ثم يتطــرق إلى تواريخ الفرس والسريان واليونان والرومان والعرب القدماء وأديانهم وعــاداقم ومذاهبهم والتقاويم القديمة والبيوت المعظمة وغيرهـــا ، ثم تطــرق إلى تــاريخ الإسلام من ظهور النبىﷺ إلى خلافة المطيع لله العباسى (ت ٣٦٣هـ) .

٢-كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضيــة والأجيــال الغابرة والممالك الدائرة ، وهو كتاب كبير ، يدخل فى ٣٠ مجلدا ، وقد أكـــثر المسعودى من الإشارة إليه فى مروج الذهب إذا اختصر الكلام فى باب قــال : " وقد فصلنا ذلك فى كتابنا أخبار الزمان " ولكن هذا الكتاب ضـــاع الآن ، و لم يبق منه إلا الجزء الأول فى مكتبة فينا .

٣-كتاب التنبيه والإشراف : ذكر فيه الأفـــلاك وهيئاقمـــا ، والنجـــوم وتأثيراقا والعناصر وتراكيبها ، وأقسام الأزمنة وفصول السنة ومنازلها ، والريـــاح ومهالها ، والأرض وشكلها ومساحتها ، والنواحى والآفـــاق وتأثيرهـــا علـــى السكان ، وحدود الأقاليم السبعة، والعروض والأطوال ، ومصـــاب الأنهـــار ، وذكر الأمم القديمة ولغاقا ومساكنها ثم ملوك الفرس والـــروم ، وأخبـــارهم ،

وجوامع تواريخ العالم والأنبياء ، والسنين القمرية والشمسية ، وسيرة النبى وظهور الإسلام وسير الخلفاء وأعمالهم إلى سنة ٣٤٥ هـ .

أما مسكويه فيعتبر من أشهر المؤرخين المسلمين " ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م " ، وقد عمل أميناً لمكتبة ركن الدين الفضل بن العميد ثم أصبح من رجال عضد الدولة ابن بويه . وكان مسكويه متضلعاً فى اللغة البهلوية والعربية . ويعتبر كتاب " تجارب الأمم " مصدراً هاماً فى التاريخ الإسلامى لان مسكويه إعتمد على تاريخ الطبرى فى ذكر الحوادث التى لم يدركها ، فضلاً على ذلك انه كان متصلاً بأكبر الشخصيات فى عصره ، قادراً على جمع المعلومات من مصادرها الأصلية ، يضاف إلى ذلك أن مسكويه لم يكن كاتباً مؤرخاً فحسب بل كان طبيباً وفيلسوفاً وخبيراً بأحوال السياسة والحرب مما يجعل أحكامه صادقة .

يؤيد ذلك أن مسكويه كان يشير أن أحسن ما كان يعجب به فى خلق عضد الدولة " ٣٦٧ -٣٧٢ هـ " إنما هو شدة تسامح الخير ، كذلك أوضح مسكويه فى كتابته عجز سيف الدولة و لم يخف هزيمته أحياناً أمام البيزنطيين مع أن سيف الدولة كان يعتبر بطلاً دينياً كبيراً .

أما ابن حزم الأندلسى الذى ولد عام ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م وتوفى عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، فقد كان عالماً فريداً فى حياته وفكره ، لم يهادن الحكام ، ودافع عن الإسلام دون مواربة . وقد وصفه المؤرخ الأسبانى " سانتشت البرنس " بأنه فيلسوف وفقيه ولغوى ومؤرخ وشاعر وثائر وعالم نفس وأخلاق وسياسى . ووضعه فى مرتبة " دانتى " شاعر إيطاليا .

وقد عاش ابن حزم بالأندلس بعد دخول الإسلام بها حيث إصطبغت شبه حزيرة أيبيريا بالصبغة الإسلامية والعربية فى كل مناحى الحياة ، فنراه فى شتى مراحل حياته أموى النزعة ومناصراً للخلافة الأموية المتداعية فى نهاية القرن الرابع الهجرى وبداية القرن الخامس الهجرى وظهور ملوك الطوائف مما حلب عليه أحقاد ملوك الطوائف ، فقد كان كاتباً تربى فى قصور الخلافة الأموية فى الأندلس عندما كان أبوه وزيراً بها، ثم عاصر ظهور دويلات الطوائف التى قامت على أنقاض الخلافة الأموية فثار على الفتن التى إجتاحت الأندلس مما جعله سياسياً مكروهاً لدى ملوك الطوائف ودينياً ملفوظاً من فقهاء عصره المالكى المذهب ، بينما ابن حزم كان ظاهرى المذهب .

ومن كتب ابن حزم كتاب " طوق الحمامة " ، وهذا الكتاب نال شهرة عالمية بعدما اكتشفه المستشرق الهولندى " رينهارت دوزى " فى جامعة ليدن فى هولندا ، وهو أروع كتاب درس الحب فى العصر الوسيط ، فى الشرق والغرب ، فى العالمين الإسلامى والمسيحى ، تتبع أطواره ، وحلل عناصره ، وجمع فيه بين **الفكرة المفلسفة والواقع التاريخى ، وواجه قضاياه فى وضوح وصراحة . كما يعد هذا الكتاب من الكتب الوصفية لطبقات المجتمع بقرطبة الأندلسية فى العصر الأموى .**

وكتاب " الفصل فى الملل والأهواء والنحل " وهو تاريخ نقدى للأديان والفرق والمذاهب ، غنى بمادته وأفكاره ، وقد حاول فيه ابن حزم أن يوفق بين النقل والعقيدة ، فسبق ابن رشد فى ذلك بقرن من الزمان وهو يعرض لشتى

مذاهب الفكر البشرى فى موضوع الدين ، من الإلحاد المطلق لا يؤمن أصحابه بشىء ، إلى إيمان العوام يصدقون كل شىء ، ويرى أن خير العقيدة ما أخذ طريقاً وسطاً بين العقل والنقل ، مما يطابق المذهب الظاهرى الذى كان هو نفسه عليه .

وقد خلف لنا ابن حزم مادة طيبة فى التاريخ ، من أهمها كتاب "جمهرة أنساب العرب " ، وهو أحسن قائمة بأنساب العرب فى الغرب الإسلامى ، ولمن يدرسون تاريخ الإسلام فى المشرق والأندلس . وكتاب "نقط العروس " علق على الإنقسامات السياسية الخطيرة التى أطاحت بوحدة الأندلس وأودت بالخلافة الأموية بعد قيام أربع خلافات فى وقت واحد بالجزيرة ومالقة وبشتر وإشبيلية . فنراه يقول متحسراً : (أنها أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها . كلهم يتسمى بأمرة أمير المؤمنين ويخطب لهم فى زمن واحد) . ثم قال : (اللهم انا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن اقامة دينهم وبعمارة قصور يتركونها عما قريب ، عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم فى معادهم ودار قرارهم) فدمغ بهذا حكام عصر بالكامل فى التهاون بأمور المسلمين ز والمسلمون_ كما يقول _ (يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرم المسلمين وابنائهم ورجالهم . يحملونهم أسارى إلى بلادهم وربما أعطوها المدن والبلاد طوعاً . لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه) فكانت كتاباته مرثية لسقوط الأندلس و رسالة موجزة عن تاريخ الخلفاء والحكام فى المشرق والأندلس . وله رسالة فى " بيان فضل الأندلس وذكر علمائه " وقد جاء المقرى بنصها كاملاً فى " نفح الطيب " ، وحررها ابن حزم رداً على رسالة تلقاها ابن عمه ، أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن ابن حزم ، من أديب

القيروان ابن الربيب التميمي ، أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد ، وربما كانت المرة الأولى في تاريخ الأدب الأندلسي ، وأول محاولة للإشادة بأمجاده ، ورغم قصرها كانت شاملة بما ألف الأندلسيون في صنوف الآداب والعلوم .

أما كتابه " الأخلاق والسير في مداواة الناس " الذى كتبه وقد شارف على السبعين عندما اعتزل الناس والحياة السياسية فيعتبر وثيقة تاريخية عن العصرين الأموى والطوائف .

الجغرافية عند المسلمين وإرتباطها بالتاريخ

إرتبطت كتابة التاريخ عند المسلمين بعلم تقويم البلدان أو الجغرافية . إذ وصفوا المدن والبلدان وذكروا طرقها وشعابها وحاصلاتها وأجوائها قبل أن يتأثروا بعلوم اليونان . ولعل من أهم الأسباب التى دفعت المسلمين إلى العناية بعلم تقويم البلدان هو معرفة البلاد التى فتحها العرب زمن الخلفاء الراشدين والأمويين وذلك لتنظيم الجزية والخراج .

كما كان المسلمون يرحلون إلى الأنحاء المختلفة فى العالم الإسلامى لطلب العلم وجمع الحديث أو تدوين الأدب ومفردات اللغة من عرب البوادى أو للقيام بالوظائف الدينية والإدارية المختلفة من قبل الخليفة أو الأمير .

كذلك عنى المسلمون بعلم تقويم البلدان عناية خاصة لحاجتهم إلى معرفة الطرق المؤدية إلى مكة للقيام بفريضة الحج . هذا بالإضافة إلى عناية العرب

بالتجارة ، حيث كان للعرب منذ العصور القديمة تجارة واسعة بين المشرق والمغرب ، وقد إشتهرت اليمن بوجه خاص فى ميدان التجارة ، كما كان أهل الحجاز من أشهر تجار العرب .

وكان كتاب بطليموس الجغرافى هو الأساس الذى نسج على منواله العرب عندما بدأوا فى نقل الجغرافية اليونانية إلى لغتهم. ولكن العرب لم يكتفوا بذلك ، بل توسعوا فى هذا العلم وأخذوا يتجولون فى أنحاء البلاد المختلفة ، كما إستطاعوا أن يصححوا الكثير من أخطاء اليونانيين .

ويعتبر أول من ترجم جغرافية بطليموس إلى العربية يعقوب ابن اسحق الكندى قبل سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م ، وينتسب يعقوب إلى ملوك كندة ، ونزل جده بالبصرة ثم إنتقل إلى بغداد ، وكان عالماً بالطب والفلسفة والمنطق والرياضيات وعلم النجوم . ثم ترجمها أيضاً ثابت بن قرة " ت ٢٨٨ هـ / ٩٠١ م " وهو من صابئة حران ثم إنتقل إلى بغداد وإتصل بالخليفة المعتضد فادخله فى جملة المنجمين ، وقد مهر كذلك فى علم الطب والفلسفة .

وقد نسج محمد بن موسى الخوارزمى على منوال بطليموس فألف كتاباً سماه " صورة الأرض " أو رسم أفريقية فى القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى ، وكان هذا الكتاب أساساً لمؤلفات جغرافية تالية . كما كان مصحوباً بخريطة رسمها الخوارزمى ومعه تسعة وستون عالماً وذلك بأمر من الخليفة المأمون. وكان المسعودى " القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى " ممن رجعوا إلى هذه الخريطة .

ومن المسلمين الذين زاروا الهند والصين عدة مرات رحالة عربي اسمه سليمان التاجر ، وصف سياحته فيها سنة ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م . وقد طبعت "رحلة سليمان التاجر" أو "سلسلة التواريخ" في سنة ١٨١١ م على يد المستشرق لانجلس ثم نشرها المستشرق رينو مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٤٥ م . وقد ترجمها إلى الفرنسية سنة ١٩٢٢ م المستشرق فران في مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية الخاصة بالشرق الأقصى .

وتعتبر رحلة سليمان التاجر من أهم الآثار الإسلامية عن الرحلات البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي كما أنها مصدر مهم عن التجارة والعلاقات بين الشرق الأدنى والشرق الأقصى في العصور الوسطى.

ومن الرحالة المشهورين أيضا ابن فضلان ، وكان مولى للقائد محمد بن سليمان الذي هزم الدولة الطولونية وأعاد مصر إلى الخلافة العباسية سنة ٢٩٢هـ / ٩٠٥ م .وقد أنفذه الخليفة المقتدر بالله العباسي سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م إلى البلغار بإقليم الفولجا . وذلك بعد أن أسلم ملكهم وكتب إلى الخليفة يسأله (أن يبعث إليه من يفقهه في الدين ، ويعرفه شرائع الإسلام ، ويبني له مسجدا ، وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة في جميع بلده وأقطار مملكته ، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له) .

ومن المعروف أن شعب البلغار أسس في بداية العصور الوسطى دولتين أقدمهما التي زارها ابن فضلان وإنتشر فيها الإسلام في حوض الفولجا الأوسط

والأخرى فى حوض الطونة أو الدانوب . أما كلمة بلغار فكانت تطلق على الشعب وعلى البلاد وعلى الحاضرة الواقعة شرقى نهر الفولجا ، والتى لا يزال بعض أطلالها قائماً على مقربة من مدينة قازان الحالية وعلى نحو ستة كيلومترات من شاطىء الفولجا الأيسر . وكان العرب فى كتاباتهم يطلقون على مملكة الصقالبة بلاد البلغار " حالياً قازاخستان " ، وفى الأندلس كان الأندلسيون يطلقون على كل عبد يأتيهم من شمال أوربا أنه من الصقالبة .

وقد كتب ابن فضلان رحلة عرفت باسمه ، وصف فيها الأماكن التى طرقها ، وتحدث بصورة واضحة عن البلغار وحضارتهم وعاداتهم وتجارتهم . . وقد عثر على نسخة خطية من رسالة ابن فضلان فى خزانة للمخطوطات فى مدينة مشهد الايرانية يرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر الهجرى .

وقد نقل المورخون والجغرافيون المسلمون عن رسالة ابن فضلان منذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى مثل الاصطرخى والمسعودى . ثم نقل ياقوت الحموى أجزاء كبيرة منها فيما كتبه عن مادة "اتل" و"باشغرد" و "بلغار" و "خزر" و"خوارزم" .

وقد نشرت هذه الرحلة لأول مرة بعناية المستشرق الألمانى فرهن فى روسيا سنة ١٨٢٣ م بعنوان " رسالة ابن فضلان فى الروس " . كما نشرت هذه الرسالة مع ترجمة ألمانية وأضاف إليها المستشرق الروسى بارتولد فى المقال الذى كتبه عن (البلغار) فى دائرة المعارف الإسلامية .

ومن الجغرافيين المسلمين عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبـة الخراسـانى " ت ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م " ، ومن مؤلفاته كتاب " المسالك والممـالك " وهـو كتاب جغرافى تاريخى هام جدا، ويزيد من قيمة هذا الكتاب أن مؤلفـه كـان عاملا على البريد فى إقليم " ميديا " بإيران ، ويشتمل الكتاب على إحصـاءات وبيانات وافية عن خراج البلاد وطرقها والمسافات بينـها ، والتجـار اليـهود والروس . وقد ألف الكتاب فى منتصف القرن الثـالث الهجـرى - التاسـع الميلادى ، وإنتفع به ابن الفقيه وابن حوقل والمقدسى .

ومن مشاهير الجغرافيين المشاهير ابن واضح اليعقوبى ، وقد ألف كتـاب "البلدان" وهو كتاب قيم نظرا للأسفار التى قام بها اليعقوبى والوظـائف الـتى تقلدها فى الدولة الطاهرية بخراسان والدولة الطولونية ، ونظرا للبيانـات الـتى جمعها من غيره ، فضلا عن أنه لم ينسج على منوال كثيرين ممن سبقوه بنقل مـا كتبوه دون فحص أو تمحيص ، ويمتاز هذا الكتاب بالإفاضة إلى ذلك بوصـف بغداد وسامرا .

قدامة بن جعفر

اسمه : أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد ، الكاتب البغـدادى ، وأبوه أبو القاسم جعفر بن قدامة ، وقد إختلف المؤرخون فى معرفتـه فى الأدب ، فقد وصفه ابن النديم فى كتابه الفهرست وصفا يدل على خموله وخلوه من العلم والمعرفـة فقـال : " وكان أبوه جعفر ممن لا تفكر فيه ، ولا علم عنده " . أمـا الخطيب البغدادى فيثنى عليه ثناءا كبيرا وعلى معرفته وسعة إطلاعه إذ يقول :

" انه أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم وينعته بوفرة الأدب وحسن المعرفة "
ويذكر أن له مؤلفات فى صناعة الكتابة وانه تحدث عن علماء وأدباء جالسهم
وتلقى عنهم كأبى العيناء الضرير ، وحماد بن اسحق الموصلى ، ومحمد بن يزيد
المبرد وغيرهم . ومن رواته أبو الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى ، وقد
توفى أبو القاسم سنة ٣٢٩ هـ .

أما جده فقد ذكر الجاحظ عنه فقال : " قدامة حكيم المشرق فى وصف
الذهن" . وكذلك أورد الجاحظ نصاً آخر فى كتابه فخر السودان من مجموعة
رسائله عند الحديث على قبة قصر غمدان ، قال : " وفيها يقول قدامة حكيم
المشرق ، وكان صاحب كيمياء " .

وأقدم من نوه عن حياة قدامة من المؤرخين ابن النديم صاحب كتاب
الفهرست ، ولكن ما ذكره كان ضئيلاً جداً إذ يقول : " هو قدامة بن جعفر ،
وكان نصرانياً ، وأسلم على يد المكتفى بالله ، وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء
والفلاسفة الفضلاء ممن يشار إليهم فى علم المنطق ، وكان أبوه جعفر ممن لا
تفكر فيه ، ولا علم عنده " .

أما أبو الفرج بن الجوزى فقد قال عنه فى كتابه المنتظم : " قدامة بن
جعفر أبو الفرج الكاتب له كتاب حسن فى الخراج وصناعة الكتابة " . أما أبو
الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزى فى كتاب الإيضاح فقد ذكره فى أثناء شرحه
لمقامات الحريرى إذ يقول : " قدامة هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن
زياد ، الكاتب البغدادى ، المضروب به المثل فى البلاغة ، وقيل : هو أول من

وضع الحساب ، وظنى أنه أدرك أيام المقتدر بالله وابنه الراضى بالله ، وله تصانيف كثيرة " .

ويذكر الملك الأفضل فى العطايا السنية ترجمة لقدامة لا تكاد تخرج عن ترجمة ابن النديم فيقول : "قدامة بن جعفر ، العلامة الإخبارى ، الكاتب البليغ ، كان فيلسوفا نصرانيا ، ثم أسلم ، وكان صاحب علوم كثيرة ، وله تصانيف مفيدة ، ومعرفة بليغة بالمنطق ، أخذ عن ابن قتيبة والمبرد ، توفى لبضع وثلثمائة "

أما بدر الدين العينى فى كتابه عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، فقد قال قولا لا يختلف عن كثيرا عمن ترجم له ممن سبق . إذ يقول : " له كتاب حسن فى الخراج وصناعة الكتابة ، وقد سأل ثعلبا عن أشياء ، وبه يقتدى علماء هذا الشأن "

وقد ذكر ياقو الحموى فى معجم البلدان : أنه تولى الكتابة لبن الفرات ، فى ديوان الزمام ويقال أنه كتب لبنى بويه لمعز الدولة البويهى .وتوفى سنة ٣٢٨هـ وقيل سنة ٣٣٧هـ فى أيام الخليفة المطيع العباسى .

لقدامة عدة مؤلفات يتواجد حلها مخطوطات ، ولم ينشر منها إلا بعض الكتب ، إلا أن أشهرها على الإطلاق كتاب " الخراج وصناعة الكتابة ، وكتاب " نقد النثر "المعروف بكتاب " البيان " ، كتاب "جواهر الألفاظ " ، كتاب " سمع الكيان " .

ومن الكتب المخطوطة :

١- كتاب نقد الشعر .

٢- كتاب درياق الفكر .

٣- كتاب السياسة .

٤- كتاب الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام .

٥- كتاب صناعة الجدل .

٦- كتاب الرسالة فى أبى على بن مقلة وتعرف بالنجم الثاقب .

٧- كتاب نزهة القلوب وزاد المسافر .

٨- كتاب زهر الربيع فى الأخبار .

٩- كتاب صابون الغم .

١٠- كتاب صرف الهم .

١١- كتاب جلاء الحزن .

١٢- كتاب حشو حشا الجليس .

أما كتاب الخراج فقد رجح (دى غويه) أن قدامة ألفه بعد سنة ٣١٦هـ بقليل ، ذلك أن قدامة ذكر فى ثنايا كتابه عن (مليح الأرمنى) على أنه معاصر له ويشير أيضا إلى اغارة (أسفار الديلمى) على قزوين فى سنة ٣١٦هـ وإلى الأعمال الإجرامية التى ارتكبها (مرداويج) وأتباعه فى السنين التالية .

وقد ذكر أبوحيان التوحيدى فى الامتاع والمؤانسة أن قدامة عرض كتابه هذا فى سنة ٣٢٠هـ على علىّ بن عيسى إذ يقول : وما رأيت أحدا تناهى فى

وصف النثر بجميع ما فيه وعليه ، غير قدامة بن جعفر في المنزلة الثالثة من كتابه.
وقال أبو حيان في رواية أخرى ، قال على بن عيسى الوزير : عرض علىّ قدامة كتابه سنة ٣٢٠هـ واختبرته فوجدته قد بالغ وأحسن وتفرد في وصف فنون البلاغة في المنزلة الثالثة بما لم يشاركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى .

ومما لا شك فيه أن كتاب الخراج وصناعة الكتابة من المصادر التاريخية الهامة لدى المهتمين بدراسة التاريخ عامة والإسلامى خاصة . وقد نقل قدامة بن جعفر عن كتاب فتوح البلدان للبلاذري . وكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . وكتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام . وكتاب الخراج ليحيى ابن آدم القرشى ، وذكر آراء كثيرة لبعض الفقهاء كأبي حنيفة ، ومالك بن أنس وسفيان الثورى وغيرهم .

وقد رتب قدامة كتاب الخراج على ثمانى منازل ، وقيل على تسع منازل خصص كل منزلة منها لبحث موضوع مستقل عن غيره ، وكل منزلة منها تحتوى على أبواب مختلفة . ذكر ياقوت في معجم البلدان أن قدامة " قال محمد ابن اسحاق : وله من الكتب كتاب الخراج تسع منازل ، وكانت ثمانية أضاف إليه تاسعا ".

إلا أن الذى بين أيدينا من كتاب الخراج المنازل الأربعة الأخيرة ، أما المنازل الأولى فلم تصل لينا حتى الان وقد شملت هذه المنازل المفقودة أموراً هامة كما يذكر قدامة بن جعفر ، إذ يقول في في المنزلة الخامسة في سياق حديثه عن ديوان الرسائل ، ذكرنا في المنزلة الثالثة من أمر البلاغة ، ووجهة تعلمها ، ثم

تحدث فى المنزلة الرابعة فقال : بينا فى المنزلة الرابعة عن ذكـــر مجلـــس الانشـــاء وحوها عن المكاتبات فى الأمور الخراجية ، ينتفع بها ويكون فيها تبصير لمن يـروم المكاتبة ومعناها . أما المنزلتان الأولى والثانية فليس لدينا أى دليل على ما عـــالج قدامة فيهما .

المنزلة الخامسة

فقد تحدث فيها قدامة عن ديوان الجيش وذكر مجالسه ، فيشير إلى بعـــض هذه المجالس مثل مجلـــس التقريـــر والـــذى يختـــص باســـتحاقات الرجـــال ، والاستقبالات ، وأوقات أعطياتهم ، وســـياقة أيامـــهم ، وشـــهورهم ، علـــى رسومها، وعمل التقدير ، لما يحتاج إلى اطلاقه لهم من الأرزاق فى وقت وجوهـله وتجريد النفات التى تنفذ لوجوهها ، والنظر فى موافقات المنفقـــين ، واخـــراج جراياتهم وغير ذلك من هذه الأشياء وجانسها . وأشار ابن قدامة ألى أن مجلـــس التقرير يكون اليه الرجوع فى أكثر أعماله ومجراه فى ديـــوان الجيـــش مجلـــس الحساب فى ديوان الخراج .

أما مجلس المقابلة فيختص بالنظر فى الجرائد - جمع جريدة : وهى الدفـــاتر التى يكتب فيها أسماء الجند وأنسابهم ومبالغ أرزاقهم وسائر أحوالهم - وتصفـــح الأسماء ، ومنازل الأرزاق ، والأطماع - تسمى الرزقات فى ديـــوان الجنـــدفى العراق ومفردها رزقة بفتح الراء ، وقد تعنى الوقت الذى يستحق فيـــه قبـــض أرزاق الرجال - والخراج بالخلائق فيما يرد من دفوع المنفقين ، ويصدر ويـــرد من الكتب ومنهم .

ويشابه هذا المجلس مجلس التفصيل فى ديوان الخراج ، وينقسم كل مجلس من مجالس ديوان الجيش إلى العساكر ، مثل ، العسكر المنسوب إلى الخاصة ، والعسكر المنسوب إلى الخدمة ، وماق النواحى من البعوث .

كذلك يحدثنا قدامة أن ديوان الجيش كان يسجل فيه الكتاب حلى الرجال ، وشيات الدواب - جمع شية وهى العلامة أو اللون - . أما حلى الرجال ، فأنهم تعودوا أن يبدأوا فى حلية كل رجل بأن يذكروا سنه ، فيقولون هذا صبى ، وهذا شاب ، أو شيخ ، ثم يتبعون ذكر السن باللون ، فيقولون : فى كل أبيض سمر تعلوه حمرة ، إلا الأسود فانهم يقولون ، أسود ويحذفون تعلوه حمرة ، ثم يتبعون ذكر اللون نعوت الوجه ، فيقولون : واسع الجبهة ، و ضيق الجبهة ، وهكذا ، وينعت الحجبان ، فيقول : مقرون - وهو ن يطول الحجبان حتى يلتقيا - وان كان ذلك خفيفا ، قيل : مقرون خفى ، وان كان أبلجالحاجبين - هو أن ينطع الحاجبان ويكون ما بينهما نقيا من الشعر والعرب تستحسنه وتمدحه - ون كن بينهم من الغضون كالخط ، قيل : خط . ثم يقال: فى العينين إذا كانت واسعة ، قيل : واسع العينين ، أو صغيرهما ، وان كان بهما شهل أو زرق ، قيل : أشهل أو أزرق ، أو كان بهما جحوز أو غور ، قيل جحظ و غائر ، ثم يقال فى الأنف ، طويل و قصير و أفطس أو أخفس ، وينعت بأحواله . ثم ينعت الوجنتان نتوء إن كان فيهما ، فيقال : ناتئالوجنتين ، و يقال: سهل الخدين ، أو مضموم الخدين ، ثم يقال : فى الشفتين ان كانتا غليظتين ، قيل : غليظ الشفتين . وان كان فى العليا شق بالطول ، قيل : أعلم . ثم يقال : فى الأسنان ان كانت فلجا ، قيل : أفلج . وان كانت طوالا جدا ، قيل : أشغى - السن الشاغية هى الزائدة على الأسنان - وان كانت صغارا

متحاتة ، قيل : أكس ، وان كانت متركبة ، قيل : متراكب الأسنان . وان كان منها شئ مقلوع ، قيل : مقلوع كذا . وذكر المقلوع . ثم يقال : فى اللحية ، وان كان مثوب الأذن ، أو الأذنين ذكر ذلك ، وان كن به جدرى ظاهر ، قيل: مجدور ، وان كان قليلا قيل : فى وجهه نبذ جدرى . ثم يوخذ فى العلامات الفارقة ، فان كانت العين ذاهبة يل : أعور العين اليمنى أو اليسرى ، وان كانت الاذن مقطوعة ، قيل : مصلوم الاذن ، اما اليمنى أو اليسرى ، وان كانت كلاهما مقطوعتين قيل : مصلوم الاذنين ، ومن العلامات الفارقة ، الخيلان – جمع خال ، الشامة السوداء – فيذكر ويحدد ذلك بوضعه وبلونه .وان كان به وشم ذكر ذلك وموضعه ولونه وان كانت كتابة تقرأ ذكرت ، وان كان ذا زيادة فى أصابعه ذكرت .

أما شيات الدواب – الشية كل لون يخالف معظم لون الفرس – فهى أول ما يبتدأ به ذكر نوع الدابة ، فيقال : فرس ان كان من الخيل ، أو شهرى ان كان شهريا أو برذونا ، و أنثى منها ، فيقال : جمر وان كان بغلا ذكرا قيل بغل وان كانت بغلة ذكرت ثم تذكر اللون . ولكتاب الجيش أحكام تجرى على ظلم وألفاظ يقع فيها اللبس على من لم يعتدها . ولا بأس بأن نذكر من ذلك .

فأما الأحكام الظلمية ، فمثل التريب الذى هو كالشئ الواجب ، وذلك ظلم من الرجال عندهم حتى يوخروا عطاؤه من وقت استحقاقه ، وكلما تقادم من زمان لفائت ، يوجب تقديم اطلاق ما أخر منه .

ومن أحكام كتاب الجيش الجارية ، على غير سبيل العدل ، أنه لا يجوز عندهم أن يزاد واحد من الرجال ، أكثر من مبلغ رزقه والذى يكون له وقت زيادته ، حتى كأنه ممتنع أن يكون رزقه فى غاية النقصان ، ومما يجرى هذا المجرى أيضا ، قولهم فيمن نقل عن اسمه وثبته ، أن يكون الاستقبال به الشهر الذى فيه اعطاء نظرائه ،وهذا فيه ضرر ، لأنه قد يجوز أن يصل الرجل إلى الموضع الذى يقبض فيه رزه ، بعد قبض نظرائه بيوم فيحتاج إلى أن ينتظر حتى يقبضوا مرة أخرى ، أو يصل فى اليوم الذى يكون فيه بضهم بعد مدة منه ، فيكون خلاف الحال الأول وهذا مخالف للعدل .

وأما ما يستعملونه ، من الألفاظ لتى يختصون بها ، ويحتاج من أراد العمل فى الجيش من الكتب أن يألفها فمثلا : أن يقولوا : فى سط من سط من الجند ، أنهم سقطوا فى الشهر الفلانى ، وليس فى الشهور على ، ولا يجب منعهم ما يريدونه من ذلك بنفس اللفظ . وأما أحكامهم الجارية على الصواب ، فمنها ما يعملون عليه ، فيما يسمونه الشهور الكومل ، وم يتحاوزها ولو بيوم مثلا يخرجونه منها ، وان كان الشهر كله لا ذلك اليوم ، واقعا فيها ، لأن الإستحقاقات إنما يكون بعد مضى جميع الشهر . وذ بقى بعضه لم يكن الشهر حينئذ مستحقا .

ديوان النفقات

قال قدامة : هذ الديوان تقسم مجالسه ، على حسب ما يجرى فيه من الأعمال وله مجلس مفرد يسمى مجلس الجارى ، ويفرد العمل مم يعمل فى ديوان الجيش . ومجلسه فى ديوان الخراج ، إذا كان الذى يحتاج إليه من ذلك هو الجرائد تصنف من المرتزقة ووقت الإستحقاقات . إلا أن شهور الإعطاء لا تجرى على الرسوم التى يجرى أمر الجيش عليها ، بل يكون فى الأكثر على الشهر المنسوب إلى الحشم ، الذى أيامه خمسة وأربعون يوما ، وربما كانت خمسين يوما ، وربما كانت ثلاثين يوما . إلا أن المعمول من الجارى فى ديوان النفقات أكثر من ذلك ، إنما هو خمسة وأربعون يوما . ومن ذلك الإنزال ، ولها مجلس ينسب إليها ، فيقال : مجلس الإنزال ، وهذا المجلس يحاسب التجار الذين يقيمون الوظائف ، من الخبز ، واللحم ، والحلوى والفاكهة وغير ذلك . ولهم فى تثمين صنوف الإقامات رسوم تختلف على حسب مراتب من يقام له ذلك .

أما بيت المال ، فان له مجلسا ، وينفرد المتولى له بالنظر فى الختمات – جمع ختمة ، وهو كتاب يرفعه الجهبذ كل شهر بالاستخراج والجمل والنفقات والحاصل كأنه يختم الشهر به – المرفوعة منه الواردة ، ديوان النفقات ، والمقابلة بما ثبت من الإحتساب ، مما يدل عليه ديوان الفقات من الصكاك – وسيلة من وسائل دفع المال . واستخدمت الصكوك فى صدر الإسلام حيث كانت الأرزاق والرواتب تدفع بها ، كما كان الصك يقوم مقام الدين عن الأشخاص ، وبالإضافة إلى ذلك كانت تكتب على بيت المال أو الصرافين وغيرهم – والاطلاقات المنشاة من هذا الديوان ، فيجب أن يكون الكاتب مشغولا بالمقابلة

بذلك . وخراج الخلاف فيه . ومن ذلك مجلس يعرف بالحوادث ، يجرى فيه أمر النفقات الحادثة فى كل وجه من وجوهها ، وينفرد بالإنشاء والتحرير مجلس ، وبالنسخ مجلس آخر .

ديوان بيت المال

قال قدامة : فى ديوان بيت المال : أن هذا الديوان ينبغى أن يعرف غرضه وهو محاسبة صاحب بيت المال ، على ما يرد عليه من الأموال ، ويخرج من النفقات ، إذا كان ما يرفع من الختمات ، مشتملا على ما يرفع إلى ديوان الخراج ، والضياع ، وما يرفع إلى ديوان النفقات ، وكان المتولى لها جامعا للنظر فى الأمرين ومحاسبا على لأصول والنفقات ، فإذا أخرج صاحب دواوين الأصول ، وأصحاب دواوين النفقات ، ما يخرجونه فى ختمات بيت المال المرفوعة إلى دواوينهم من الخلاف ، فيخرج الوزير ذلك إلى صاحب هذا الديوان ليصفحه ويخرج ما عنده فيه . ومما يحتاج إلى تقوية هذا الديوان به ليصلح أحواله وأعماله ، ويستقيم ما يخرج منه ، أن يخرج كتب الحمول أى الأموال التى تحمل إلى بيت المال من جميع النواحى قبل إخراجها إلى دواوينها إليه ليثبت فيه ، وكذلك سائر الكتب النافذة إلى صاحب بيت المال من جميع الدواوين ، بما يؤمر بالمطالبة به من الأموال ، ويكون لصاحب هذا الديوان علامة على الكتب والصكاك ، يتفقدها الوزير وخلفاؤه .

ديوان الرسائل

يذكر قدامة أن المتولى لهذا الديوان يجب أن يكون متصرفاً فى جميع فنون المكاتبات ، واضعاً لما ينشئه فى موضعه ، اذ كان للوزير أن يأمره بالمكاتبة فى كل فن من الفنون المعروفة والغريبة الواردة . ويذكر أيضاً فى هذا لمقام على سبيل المثال ، ما حكى عن أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب الكوفى وكان يتولى ديوان الرسائل للخليفة المأمون ، أنه قال : أمرنى المأمون أمير المؤمنين ، أن أكتب بالزيادة فى قناديل المساجد الجامعة ، فى جميع الأمصار ، فى ليالى شهر رمضان ، ولم يكن قد سبق إلى هذا المعنى أحد ، فآخذه وأستعين ببعض ما قاله ، فأرقت مفكراً فى معنى أركبه ، ثم نمت فرأيت فى المنام كأن آتياً أتانى ، فقال : قل فان فيها أنساً للسابلة ، وأضاءة للمتهجدة ، ونشاطاً للمتعبدين ، ونفياً لمكامن الريب ، وتنزيهاً لبيوت الله عن وحة الظلم . ويجب على كاتب الرسائل أن يكون متمهراً فى أصل الترسل عارفاً بوجوه المعانى والوقوف على رسومها ومذاهبها .

ديوان التوقيع والدار

قال قدامة : اذا أنهى إلى الخليفة حال من قدم من النواحى عليه يسأل شيأً عن حاجته عنده ، كان ذلك من مؤامرة _ المؤامرة : عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة فى مدة أيام الطمع ويوقع السلطان بأمره باجازة ذلك _ من الوزير اليه منشؤها ديوان الدار ، فإذا خرجت المؤامرة موقعاً فيها بخط الخليفة بأمضاء ما التمسه الملتمس انشئت والتوقيع فيها فى ديوان الدار بنسختها ، وأنشئ من

ديوان الدار إلى صاحب الديوان الذى تجرى المسألة فيه ، أما ان كان ايغـــاراً ــ الحماية ، وذلك أن تحمى ضيعة أو رية فلا يدخلها عامل ويوضع عليـــها شـــئ يؤدى فى السنة لبيت المال – أو تركة فصاحب الخراج وان كـــان أقطاعـــاً أو طعمة – وهى أن تدفع الضيعة إلى رجل ليعمرها ويؤدى عشرها وتكـــون لـــه طول حياته ، فإذا توفى ارتجعت من ورثته ، أما الإقطاع والقطيعة تكون لعقبـــه من بعده – فصاحب ديوان الضياع .

ديوان الخاتم

وأول من استأنف هذا الديوان ورسم هذا الرسم فى الإسلام ، زياد بـــن أبيه ، ثم أستمر الأمر إلى هذا الوقت ، فأما الخاتم نفسه فكان نقش خاتم النـــبى صلى الله عليه وسلم . وكان أبو بكر ، وعمر ، وعثمان يختمون به فبينما هـو فى يد عثمان اذ سقط فى البئر ، فأتخذ خاتما ونقش عليه محمد رسول الله فى ثلاثـــة أسطر .

قال قدامة : جعل هذا الديوان استظهاراً لتكون الكتب الـــتى يحتـــاج إلى ختمها بخاتم أمير المؤمنين تمر به ، وهو رسم كانت الفرس تجرى أمرها عليـــه ، لأن الملك منهم اذا أمر بأمر وقعه صاحب التوقيع بين يديه ، ثم ينفذ التوقيـــع إلى صاحب الزمام واليه الختم ، فينفذه إلى صاحب العمل ؛ ليعرضه على الملـــك ، ويختم بحضرة الملك ، أو بحضرة أوثق الناس عنده .

ديوان الفض

أما منزلة هذا الديوان من الخليفة ، فهو بمنزلة مجلس الاسكدار -وهو المكان المخصوص لحفظ الرسائل - فى ديوان الخراج ، لأن الكتب الواردة من العمال إلى الخليفة يكون ابتداؤها به وخروجها إلى الدواوين منه بعد فضها وأخذ جوامعها ، ليقرأها الخليفة ويوقع فيها بما يراه ، ويذكر قدامة أن المتولى لفض الكتب واخراجها فى وقته هو الوزير ، وصار المتولى له كاتباً برسمه بذلك فى داره ، والذى يحتاج اليه فى هذا الديوان من الكتاب كاتب يكون ما يعمله من انفاذ سراحات بما يرد عليه من الكتب ، إلى صاحب الديوان على حسب قسمة الدواوين والأعمال ، وكاتب يعمل جوامع الكتب التى يحتاج إلى عرضها وناسخ ينسخ مايعمل به من ذلك فى هذا الديوان .

ديوان دار الضرب ، والنقود ، والعيار ، والأوزان

كذلك يذكر قدامة أن الفرس لما أخذت دولتهم تضعف فسدت نقودهم فام الإسلام ونودهم من العين والورق ، غير خالصة فما زال الأمر على ذلك إلى أن اتخذ الحجاج دار الضرب ، وجمع فيها الطباعين ، فكان المال يضرب للخليفة مما يحتاج له من الذهب ، وخلاطة الزيوف - المزيفة : وهى الدراهم التى خلط بها نحاس أو طلى بها - والبهرجة - الدراهم المزيفة التى يردها التجار - ثم أذن للتجار فى أن تضرب لهم الأوراق ، وختم على أيدى الصناع والطباعين وذلك فى سنة خمس وسبعين . ثم نقش على الدراهم (الله أحد الله الصمد) فسميت المكروهة لأن الفقهاء كرهوها ن ثم لما ولى عمر بن هبيرة العراق ، فى عهد يزيد بن عبد الملك جود الدراهم وأشتد فى العيار ، كذلك فعل خالد بن

عبد الله السرى لما ولى العراق فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملـــك اشـــتد فى النقود أكثر من اشتداد ابن هبيرة ، فكانت الهبيرية ، والخالدية ، - يوسف بـــن عمر الثقفى ولى بعد خالد فأفرط فى الشدة فى تخليص العملة والدقة فى العيـار - أجود نود بنى أمية ، و لم يقبل الخليفة المنصور من النقود غيرها . ثم جود العيـــار فى أيام الخليفة هارون الرشيد والمأمون والواثق .أما الورق ، فان الدراهم كـــانت فى أيام الفرس مضروبة على ثلاثة أوزان ، درهم منها على وزن المثقال ، وهـــو عشرون قيراطاً - ويسمى هذا الدرهم البغلى ويســـاوى ٨ دوانـــق = ٦٦و٤ غرام، وقد نسبت إلى (بغل) وهو رجل يهودى ضرب تلك الدراهم - ودرهم وزنه اثنا عشر قيراطاً ، ودرهم وزنه عشرة قراريط . فلما احتيج فى الإســـلام إلى الزكاة ، أخذ الوسط من مجموع ذلك ، وهو اثنان وأربعون قيراطاً . فكـــانت أربعة عشر يراطاً من قراريط الدينار .

وفى أيام الفرس كانت الدراهم يسمى منها البعض مما وزن الدرهم فيـــه مساو لوزن الدينار ، العشرة .وزن عشرة . ومما الدرهم منه اثنا عـــر قيراطـــاً ، العشرة وزن ستة ، ومما الدرهم منه عرة قراريط ، العشرة وزن خمسة .

فلما ضربت الدراهم الإسلامية على الوسط من هذه الثلاثة الأوزان قيـــل فى عشرتها وزن سبعة . ومما لا شك فيه أن ذكر الأوزان فى الصكاك يفيـــد فى معرفة الدراهم لوجود الأوزان الثلاثة فى ذلك الوقت .أما ديوان دور الضـــرب فيجرى العمل فيه على نحو الدواوين المتقدم ذكرها فى نصب الدفاتر وغير ذلك

أما ديوان الجهبذة ـ الصيرفة ـ فأعماله أيضاً نحو أعمال سائر الدواوين والذى تجرى فيه من الأموال ، هو مال الكسور والكفاية والوقاية وارواج . وما يجرى مجرى ذلك من توابع أصول الأموال . ثم ما ستزيده شرارة الجهابذة من الفضول على هذه التوابع من الوقوع فى أمر شاق من عليه من مال الخراج ، ومن يجرى مجراهم فى النقود .ومن يتعذر عليه أداء فى وقت المطالبة ويخرجونه فى وجوه النفقات .

ديوان المظالم

قال قدامة : هذا الديوان سبيله أن يتقلده رجل له دين وأمانة ، وفى خليقته عدل ورأفة ليكون ذلك منه نافعا للمتظلمين ، وأن يعمل بجميع القصص أو العرائض جامعا يعرض على الخليفة فى كل جمعة . فاذا قعد للناس وكان ممن له صبر على تأمل القصة والتوقيع عليها فعل ذلك ، وإلا علق صاحب الديوان عليها رقعة فيها ، بمجموعها لينظر في المجموع ، ويوع على القصة بما يوجب الحكم . حتى اذا انفض المجلس الذى يجلسه الخليفة ، أو من يقوم مقامه . أخذ جميع القصص بمجموعاتها واثبتت فى الديوان ، وذكر أسماء الرافعين والتوقيعات على قصصهم ثم دفعت إليهم بعد ذلك لئلا يجرى تزوير .ويكون فى هذا الديوان من يثبت ذلك ، وناسخ ينسخ مجموعات القصص ، ومنشئ يأخذ جوامع القصص عند الحاجة للعرض ، ومحرر يحرر ذلك ، ويحرر ما يحتاج إلى الكتاب فيه إلى كل واحد من أصحاب الدواوين أو القاضى أو من جرى مجراهم .

فى كتابة الشرطة والأحداث

يقول قدامة : أن من يتعرض للكتابة فى هذا الشأن أن يكون قد جمـع إلى بعض ما قدمناه من فنون الكتابة ، الاضطلاع من الحكم الذى يحتاج إلى أن يمـر به فى الشرطة على ما مر به ، لم يكن غريباً فيه ، وذلك أن أكثر عمله مجـازاة الجناة على جناياتهم ، وهو القصاص والحدود فى القتل ، وسائر الجنايـات ، أو المطالبة بالدية والأرش - الخدش - ممن يقبل ذلك منه ، ان لم يقع العفـو مـن المجنى عليه وأوليائه أو الصلح .ويذكر دامة الجنايـات وانواعـها ، والقصـاص والديات وأنواعها ، وحد الزنا .

ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحى المشرق والمغرب

قال قدمة : يحتاج فى البريد إلى ديوان وتكون الكتب المنفذة مـن جميـع لنواحى ، مقصودا بها صاحبه ليكون هو المنفذ لكل شـئ منـها إلى الموضـع المرسوم بالنفوذ اليه ويتولى عرض كتب أصحاب الـبريد والأخبـار فى جميـع النواحى على الخليفة ، أو عمل جومع لها ، ويكون النظر فى مر الفُرْوانقيـين - جمع فرانق . وهو الحامل للخرائط - والموقعين والمرتبين فى السـكك - جمـع سكة . وهو المكان أو الموضع - وتنجز أرزاقهم وتقليد أصحـاب الخرائـط فى سائر الأمصار ، ويجب أن تتوفر فى صاحب هذ الديوان أن يكون ثقة ، امـا فى نفسه أو عند الخليفة ، لأن هذ الديوان ليس فيه من العمل ما يحتـاج معـه إلى الكافى المتصفح ، وانما يحتاج إلى الثقة المتحفظ .وينبغى أن يعلم صـاحب هـذا الديوان أمر الطرق ، ومواضع السكك والمسالك إلى جميع النواحى ، ولا غـنى

بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه ما لا يحتاج فى الرجوع فيه إلى غيره ، وما أن سأله عنه الخليفة فى وقت الحاجة إلى شخوصه وانفاذ جيش ، وغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببة ، وحد عنده .وقد بدأ قدامة بذكر أسماء المواضع والمنازل والأميال ووصفها وبدأ بالطري المأحوذ فيه من مدينة بغداد إلى مكة وما والاها من اليمن وغيرها ، ثم بما يتبعه من الطرق إلى نواحى المشرق ، والمغرب والشمال والجنوب وما والاها . وذكر السكك التى رتبت فيها الرجال لحمل الخرائط شرقا وغربا .

المنزلة السادسة

ويذكر فيها قدامة أحوال الأرض فى شكلها ومساحتها وأوضاع البلدان فيها والمعمور من الأرض . ووضع البحار من الأرض المعمورة ومسافتها والجزائر منها ، والجبال والأنهار والعيون والمشهور منها .

فأما مملكة الإسلام فيذكر أن قصبتها بلد العراق ، وأعمالها ، وثغور الإسلام البرية والبحرية ، والأمم المطيفة بها . وخراج العرق وأعمال السواد فى الجانب الغربى والشرقى من نهر دجلة عشرة كور وطساجيها - جمع طسوج : ومعناه الناحية - ثمانية وأربعون طسوجا ، والإحواز وهى التى تلى أعمال السواد من جهة الشرق ، وهى كما يذكر قدامة سبع كور أولها من حد البصرة، وتبع الأحواز بفارس ثم يلى فارس كرمان وسجستان وخراسان ، وأعمال المشرق الشمالية فبدأ من حلوان ، والكوفة والبصرة وهمذان ومهجاروق ،والايغارين وقصباتها الكرج والمرج . وقم وقاشان وأذربيجان

وكورها ، وكورة الرى وقزوين وقومس وجرجان وطبرستان ، ثم ذكر أعمال المغرب فأولها من حد الفرات ، تكريت والطيرهان والسن والبوازيج ثم يلى ذلك الموصل وأعمالها ، ثم يلى ذلك من جهة الشمال ديار ربيعة وبلاد أرمينية وكورها ثم أعمال ديار مضر فى الغرب ، ثم أعمال الشام ، ومصر والاسكندرية، والحجاز ، واليمن والبحرين وعمان .

كما ذكر قدامة الأموال التى كانت ترفعها هذه البلاد إلى بغداد سنة مائتين وأربع .

المنزلة السابعة

فأما المنزلة السابعة ففى مجموع الأموال ، تحدث فيها عن أرض الفئ وأرض العنوة والصلح وأرض العشر والقطائع - أى الأرض التى ليست مملوكة لمسلم ولا معاهد فأمرها إلى الإمام أو الخليفة يقطعها من أختار - كذلك تحدث عن احياء الأرض ، والمقاسمة .

فأما الجزية فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقبول الجزية من أهل الكتاب الذكور المحتلمون وتسقط عن العميان والرهبان وسائر من يجرى مجراهم أما كم الجزية ، فعلى الطبقة العليا ثمانية وأربعون درهما وعلى الوسطى أربعة وعشرون درهما وعلى الدون أثنا عشر درهما .كذلك تحدث عن صدقات الابل والبقر والغنم ، وأخماس الغنائم ، وفيما يوخذ من التجار إذا مرو على العاشر ، ومواريث من لا وارث له ، وفى اخراج مال الصدقة ، وفتوح النواحى والأمصار

منذ أن هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ، فتحدث عن خيبر وفدك ووادى القرى ، مكة والطائف ونجران واليمن ،وعُمان والبحرين واليمامة، والشام ، وقبرص ، والجزيرة ، و أرمينية ، ومصر والمغرب ، والأندلس، وصقلية ورودس أرواد وهى بالقرب من القسطنطينية ، وكريت ، والنوبة والبُجَة ، وأرض السواد والعراق ، وغيرها .

كذلك تحدث عن فتح بلاد الجبل ونهاوند والدينور وهمذان وقم وأصبهان والرى وقزوين واذربيجان وشهرزور والصامغان والأهواز وفارس وكرمان وسجستان وكابل وخراسان ، والسند .

المنزلة الثامنة

أما المنزلة الثامنة من كتاب الخراج فقد ذكر فيها السبب الذى احتاج له الناس إلى التغذى واللباس والكسوة والتناسل والمدن ، والذهب والفضة والتعامل بهما فى تدبير معاشه ومصلحة أمره . كذلك تحدث عن السبب الداعى إلى اقامة امام أو ملك للناس يجمعهم .

أما النظر فى علم السياسة فقد ذكر قدامة أنه واجب على الملوك والأئمة لأنهم إذا فعلوا ذلك استقامت استقامت آرائهم وصلحت أفعالهم ، وإذا صلحت أفعالهم عمّ نفع ذلك رعاياهم ، ويرى أن الصلاح والفساد اللذين يكونان فى الأزمنة والأوقات ، انما هما باستقامة أفعال الملوك وأعوجاجهم فاذا صلحت تدبيراتهم بصواب الرأى وسداد الفعل فى وقت ، نسب ذلك الوقت إلى أنه وقت

حميد وزمان شديد ، واذا فسدت أحوالهم واضطربت مجارى أمورهم فى آخـــر نسب الوقت الذى فيه هذا إلى أنه وقت شديد ، بما يعرض لأهله مـــن الفســـاد وسوء التدبير .

كذلك تحدث قدامة عن أخلاق الملك وما يجب عليه أن يكون عليه منـــها فى ذات نفسه ، فأول ما ينبغى أن يكون من صيغة الملك العقل فانه أفضل قـــوى النفس ، ويحتاج الملك أن يكون شجاعاً ، وأن يكون بعيد الفكر متطلعـــا نحـــو العواقب ذا عزيمة فى نفسه وشكيمة فى رأيه ، ومن كمال الخلال أن يكون عادلاً حليماً ، ولا يخلو من مجالسة الحكماء ومعاشرة ذوى الـــرأى والحجـــى ، وأن يكون متمهرا فى العلوم وأن يتمز بالإستقامة ، ، والفضيلة ، والرجاحة .

كذلك تحدث قدامة عن الخلال التى ينبغى أن تكون مع خاصـــة الملـــك والقرباء منه وهى عشرون خلةً : أولها : العقل ، والعلـــم ، والـــود للنـــاس ، والنصيحة ، وكتمان السر ، والعفة عن الشهوات ، ومجانبة الحسد ، والصرامـــة وهى شدة القلب ، والصدق ، والتغافل والصفح عن أكثر ما يوجب الغضـــب من أفعال إذ كان ذلك ير ضار ، وحسن الزى والهيئة ، وامتثال أمر الملك ، وأن يكون أميناً ، سجياً ، وأن يخلو من اللجاج والمحك ، و ألا يكـــون بذاخـــا و لا متكبراً ، وألا يكون حريصاً فان الحرص من أمارات ضيق النفس ، وألا يكـــون ثقيل الروح .

كذلك تحدث قدامة عن الوزراء ، وما يحتاج إليه الملوك منهم ، وما يلـــزم الملوك لهم . فيذكر قدامة أن الوزير يجب أن تكون فيه هـــذه الخصـــال : تـــام

الأعضاء ، أن يكون جيد الفهم كثير العلم حسن التصور ، جميل الوجه ، حسن العقل ، حسن العبارة ، حسن الملبس ، صادق القول ، أن يكون قنوعاً فى الأكل والشرب ، قليل الشهوة فى النكاح ، متجنباً للذات المزاح . وأن يكون كثير اليقين عالى الهمة محباً للاكرام كارهاً للضيم .

أن يكون لوزير محباً للعدل وأهله ، وأن يكون قوى العزيمة على الشيء الذى ينبغى أن يفعله ، وأن يكون كاتباً مرسلا أديباً حافظاً للتواريخ وسير الملوك والأمم ، وأن لا يكون كثير الكلام ، وأن يكون محله موطناً للصادر والوارد من ذوى الحاجات مصغياً إلى أخبارهم ، وأن لا يكون ممن ينهمك فى الشراب والراحات واللذات ، ويكون ممن يعتد الرُّبُوبية ويعتقد شرائعه .أما ما يلزم الوزراء من الحقوق لملوكهم ثلاثة . الإخلاص فى النصيحة ، وبذل الجهد فى اقامة صحة الدولة ، ودفع الأفات عنها .

وقد نقل قدامة عن كتاب فتوح البلدان للبلاذرى . وكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . وكتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام . وكتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي وذكر آراء كثيرة لبعض الفقهاء كأبى حنيفة ، ومالك بن أنس ، وسفيان الثورى وغيرهم .

أما ابن الفقيه الهمذانى " ت أواخر القرن ٣ هـ / أوائل ١٠ م " فقد وصلنا من مؤلفاته " مختصر كتاب البلدان " الذى ألفه سنة ٢٧٩ هـ ووصف به الأرض والبحار فى الصين والهند وبلاد العرب وغيرها وأفاض فى وصف البصرة والكوفة . وقد جاء ذكر هذا الكتاب كثيراً فى كتب المقدسى وياقوت .

ومن الذين كتبوا فى موضوعات جغرافية خاصة الهمدانى المعروف بابن الحائك " ت ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م " وهو ينسب إلى قبيلة همدان اليمنية . وقد وصلنا من مؤلفاته كتاب " صفة جزيرة العرب " ويبحث فى وصف بلاد العرب وجبالها ومساكنها ومدنها ولغاتها وآثارها ومعادنها. وكتاب " الاكليل " فى أنساب حمير وملوكها وبه وصف بلاد اليمن .

وممن نبغ فى الجغرافية من علماء المسلمين فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى شمس الدين أبو عبد الله المقدسى المولود فى القدس . وقد ساح المقدسى فى أكثر بلاد الإسلام شرقاً إلى السند والهند وغرباً إلى الأندلس . وقد ذكر فى كتابه " أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم " أحوال الربع المعمور وبلاده وبره وبحره . وقال أنه لا بد منه للمسافرين ولا غنى عنه للعلماء والرؤساء ، ويقول المقدسى أنه رسم مع كتابه خريطة بين فيها الأقاليم وحدودها وخطوطها ولون فيه الطرق المعروفة باللون الأحمر والرمال الذهبية باللون الأصفر والبحار المالحة باللون الأخضر والأنهار باللون الأزرق .

وقد أطنب المقدسى فى ذكر تجاربه ، كما أسرف فى وصف مزايا كتابه وما تكبد فى سبيل تأليفه . ومن ذلك قوله : " وما تم لى جمعه إلا بعد جولاتى فى البلدان ، ودخولى أقاليم الإسلام ، ولقائى العلماء ، وخدمتى الملوك ، ومجالستى القضاة ودرسى على الفقهاء ، وإختلافى إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتصوفين ، وحضور مجالس القصاص والمذكرين ، مع لزوم التجارة فى كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد والتفطن فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى عرفتها ، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ، ودورانى على

النجوم حتى حررتها، وتنقلى إلى الأجناد حتى عرفتها ... الخ ".وكان المقدسى بوجه عام يتحرى التدقيق والتمحيص فيما يكتب ، كما كان يعنى بالأخبار الطريفة والعادات غير المألوفة .

ومن العلماء المسلمين الذين كتبوا فى الجغرافية أبو الريحان البيرونى الخوارزمى " ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م " . والبيرونى نسبة إلى مدينة بيرون فى السند . وقيل إن السلطان محمود بن سبكتكين لما إستولى على خوارزم صحبه معه فى فتوحاته فى بلاد الهند . وأقام البيرونى بين الهنود وتعلم لغتهم واقتبس علومهم ، ثم أقام بغزنة حتى مات بها .

وقد ألف البيرونى كتاباً عن الهند بعنوان " تاريخ الهند " ، وهو من الكتب القيمة فى جغرافية الهند وتاريخها . وله أيضاً كتاب فى التاريخ والنجوم هو " الآثار الباقية عن القرون الخالية ".

ومن الرحالة المشهورين فى القرن الخامس الهجرى ناصر خسرو "ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م " وهو من إيران ، وقد تجول فى بلاد ايران مبتدئاً من مرو فى خراسان ماراً بأذربيجان وأرمينية والشام ومصر والحجاز ونجد وجنوب العراق ، ثم يعود لإلى إيران منتهياً إلى مدينة بلخ فى خراسان .

وقد زار مصر الفاطمية فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله فيما بين ٤٣٩ - ٤٤١ هـ / ١٠٤٧ - ١٠٥٠ م وأعجب بها وبرخائها . وإعتقد ناصر خسرو أن السبب فى إستقرار ورخاء وادى النيل انما يرجع إلى الدولة

الفاطمية ومذهبها الإسماعيلى ، ولذا أصبح من أشد دعاة الإسماعيلية والمتعصبين للخلفاء الفاطميين بعد أن كان يتبع المذهب السنى ، وحينما عاد إلى خراسان أخذ يدعو إلى المذهب الإسماعيلى ولاحظ السلاجقة خطر هذه الدعوة فاضطهدوه وألجأوه إلى الفرار إلى بلاد ما وراء النهر حيث توفى بها.

وقد ترك ناصر خسرو وصفاً دقيقاً لرحلته يعتبر من أهم المصادر فى دراسة الحضارة الإسلامية فى شرق الإسلام فى القرن الخامس الهجرى بعنوان "سفرنامة " .ووصف مصر يشغل نحو ثلث الكتاب ، وهى رحلة تقع حوادثها بين سنة ٤٣٧-٤٤٤هـ ، وقد ترجم هذه الرحلة من الإيرانية إلى الفرنسية شارل شفر (باريس ١٨٨١ م) وترجمها إلى العربية يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٤٥ م) .

ومن أعظم علماء الجغرافيا وراسمى الخرائط فى العصور الوسطى الشريف الإدريسى الذى ولد فى سبتة بالمغرب الأقصى سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م ، ودرس فى جامعة قرطبة ، ثم طاف فى الأندلس وشمالى أفريقية وآسيا الصغرى . ويقال انه زار فرنسا وإنجلترا ثم لبى دعوة الملك رجار الثانى النورمندى فى بلاطه بصقلية، وقد وقع إختيار رجار الثانى عليه ليؤلف له كتاباً شاملاً فى وصف مملكته فى صقلية وجنوب إيطاليا وفى وصف سائر البلاد المعروفة حينذاك .

وقد أصبح الإدريسى من ألمع رجال البلاط النورمندى وبقى إسم صقلية متصلاً باسمه ، وصنف رسالته المشهورة " نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق " المعروفة باسم " كتاب رجار " قبل وفاة رجار سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م .

كذلك صنع الإدريسى للملك رجار أول كرة أرضية عرفت فى التاريخ وكانت من الفضة وزنتها ١٤٤ أقة ، وقد رسم عليها جميع أنحاء الأرض المعروفة حينذاك رسماً غائراً مشروحاً .

ومن أشهر الجغرافيين والمؤرخين والأدباء المسلمين ياقوت الحموى " ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م " ، وكان رومى الأصل ، ولد حوالى سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٨ م فى بلاد الروم وأسر فى حداثته وابتاعه تاجر حموى مقيم فى بغداد ، فنشأ مسلماً وعنى التاجر بتعليمه لينتفع به فى تجارته فتلقى العلوم المعروفة فى عصره وقام بعدة أسفار فى أعمال تجارية لسيده ولا سيما بمنطقة الخليج الفارسى.

وقد أعتقه مولاه سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م وأخذ يبعثه فى شئون تجارته إلى الأصقاع المختلفة ثم دب بينهما الخلاف فاحترف ياقوت نسخ الكتب . وقد أفاد ياقوت من ذلك كثيراً ومن تجارة الكتب بعد ذلك ومن أسفاره ورحلاته قبل عتقه وبعده حيث حال فى إيران وبلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام وبلاد ما وراء النهر ، وقد استفاد برحلاته الكثيرة فوائد جغرافية عديدة خاصة فى تأليف كتابه معجم البلدان الذى يعد من أهم المصادر التى يمكن الإعتماد عليها .

وأفاد ياقوت كثيراً من التنقيب فى خزانات الكتب ولا سيما من خزائن مدينة مرو . وقد صادف ياقوت وقد استقر فى خوارزم فمكث فيها إلى أن أغار عليها جنكيزخان سلطان التتار فى سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩م ، فرحل ياقوت

إلى الموصل لا يحمل شيئاً من ماله ، ثم سار إلى مدينة حلب وأقام فى ظاهرها إلى أن توفى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م .

وقد ألف ياقوت " معجم البلدان " ، وإمتاز هذا المعجم بترتيبه على حروف الهجاء وبدقته وإتساعه وجمعه بين الجغرافية والتاريخ والعلم والأدب ، وقد فرغ من تأليف هذا المعجم فى سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م .

أما الحميرى " محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميرى"(ت ٨٦٦هـ / ١٤٦١م) يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن عبد المنعم ، من أهل سبتة . وقد أخذ ببلده عن الأستاذ أبا اسحاق الفافقى ، ولازم القاسم بن الشاط وانتفع به وبغيره من العلماء . ورحل إلى بلاد الأندلس .

واذا تحدثنا عن ثقافته فقد كان متفنناً فى معارف اللغة والنحو والقراءات والحديث وغيرها . ويعتبر كتابه " الروض المعْطار فى خبر الأقطَار " من أهم المعاجم الجغرافية مرتباً على حروف المعجم ليسهل على الطالب كشف اسم الموضع الذى يريده ، ولما كان استقصاء المواضع أمراً عسيراً فقدوضع الحميرى نصب عينيه : **أولاً** : أن يكون المكان مشهوراً . **ثانياً** : أن يكون مما اتصل به " قصة أو حكمة أو خبر طريف " .

المؤرخون فى البلاد الإسلامية ومنهج الكتابة التاريخية

يفخر التراث الإسلامى بعدد كبير من المؤلفات لا يرقى إليه تراث فى أى حضارة أخرى فى العصور القديمة والوسطى ، ويستطيع الباحث فى التاريخ الإسلامى أن يفيد من مؤلفات تاريخية كثيرة جدا ، ومن مؤلفات أخرى يبدو أنها ليست ذات صلة وثيقة بالتاريخ ولكن الباحث يستطيع أن يستخرج منها معلومات كثيرة عن الجوانب المختلفة فى الحضارة الإسلامية .

ونلاحظ أن معظم المؤرخين فى العالم الإسلامى كانوا يتجهون إلى الكتابة التاريخية لتوفرهم على هذه الدراسة ، ويلاحظ أنهم لم يؤلفون الكتب تبعا لأمر من الحكام بصفة عامة . حيث لم يكن هناك مورخون رسميون متصلون بالخلفاء والأمراء إلا نسبة قليلة ، وذلك على الرغم من أن عددا من المؤرخين كانوا على صلة بالدولة فكان من بينهم الوزراء والكتاب والقضاة .

كما يمكن القول أن المؤرخين المسلمين كانوا من مختلف فئات المجتمع ، فكان منهم من هو فى سعة من العيش ، ومنهم من احترف التعليم أو التجارة ، ويبدو أن بعض الفقراء من بينهم كانوا يكسبون شيئا من المال يدفعه التلاميذ الذين يدرسون عليهم وينقلون عنهم الروايات التاريخية .

ومن أمثلة الكتب الرسمية كتاب " التاج " الذى كتبه الوزيـــر إبراهيـــم الصابى " كاتب عز الدولة بختيار " فى تاريخ الدولة البويهية . وقد نقل مســكويه فى كتاب " تجارب الأمم " كثيراً مما جاء فى كتاب التاج .

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الكتب الرسمية فى كتابة التاريخ كـــانت قليلة ، فمن المعروف أن الخلفاء والحكام كانوا يطلبون من الأدباء والفقـــهاء أن يولفوا فى موضوعات بعينها ، مثل كتاب الخراج لأبى يوسف صاحب الإمـلم أبى حنيفة ، وكان الخليفة هارون الرشيد قد وجه إليه أسئلة أجاب عنها أبو يوســف فى كتابه الخراج .

ويبدو أن الحكام لم يفعلوا ذلك مع المؤرخين ، ومع ذلك فقد كان بعـض الحكام يأمرون للمورخين فى بعض الأحيان بالعطاء . ويرجح أن عدداً كبيراً مــن المؤرخين المسلمين كانوا يهدفون إلى الإستقلال فى الرأى وإلى توخى الصــدق فى الرواية وأنهم لم يتأثروا بالحكام تأثيراً كبيراً . ومـــن أمثلـــة هـــولاء المؤرخـــين البلاذرى والطبرى ومسكويه وابن حيان القرطبى ،وحسبنا أن مسكويه يعـــرض لتأسيس دولة بنى بويه من دون أن يخفى جرائم موسسها .

ويبدو أن المؤرخين المسلمين لم يتأثروا تأثيراً كبيراً بغيرهم من المؤرخين فى العصور القديمة أو التى عاصرتهم . حيث لم تصل إلينا شىء يشهد بأنهم عرفـــوا المؤرخين اليونان عن طريق ترجمات عربية .

كما أن الكتابة التاريخية السريانية لم يكن لها تأثير على المؤرخين المسلمين بالرغم أن السريان كانت لهم مدرسة مشهورة فى الرها وفى نصيبين ، ثم أسس لهم كسرى أبو شروان مدرسة فى جنديسابور ، وأنهم كانوا يتعلمون لغة اليونان وينقلون إلى السريانية الكتب اليونانية وأنهم أصبحوا بعد ذلك واسطة لإقتباس العرب كثيراً من التراث اليونانى . والمعروف أن ما إقتبسه العرب منهم كان فى المنطق والفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافيا وليس فى التاريخ . والواقع أن التأثير الأجنبى الذى نلمسه عبد بعض المؤرخين المسلمين القدماء كان فى كتب التاريخ الفارسية فيما يختص بالتاريخ الإيرانى القديم .

وقد كان معظم مؤرخى الإسلام - مثل مؤرخى العصور الوسطى فى الغرب - يميلون لذكر الأساطير العجيبة والخرافات والخوارق ، وينسبون كل ما هو قوى أو عظيم إلى الجن أو إلى آدم . وكانوا أيضاً يبالغون فى الإحصاءات المختلفة الخاصة بالجند أو الأموال أو العمال أو مواد البناء ، وكانت هذه المبالغات تظهر خاصة عند الحديث عن العصر الجاهلى ، مثلما نرى فى كتاب الإكليل لابن الحائك الهمدانى وتاريخ الطبرى ومروج الذهب للمسعودى .

ومن الملاحظ أن المؤرخين فى ديار الإسلام وفى أوروبا فى العصور الوسطى كانوا ينقلون نقلا كثيرا جدا عن مؤلفات من سبقوهم ، وفى بعض الأحيان كانوا ينقلون عن مؤلفات الذين عاصروهم بل أنهم كانوا ينقلون أحيانا كتبا بأكملها . وفى بعض الأحيان كان الذى ينقل يذكر المصدر الذى نقل عنه وأحيانا كان البعض لا يفعل ذلك .

ومن الملاحظ أن النقل كان مألوفا فى العصور الوسطى ، وربما دعـــا إلى ذلك قلة النسخ التى كانت تكتب من المؤلفات وعدم إنتشارها إنتشـــارا كافيـــا بسبب غلاء الورق وعدم إختراع الطباعة ، وكان المؤرخون لا يرون حرجـــا فى ذلك ما داموا يذكرون المصدر الذى ينقلون منه . وكان ذلك أيضا بسبب إنعـدام العنصر الشخصى فى الكتابة التاريخية فى العصور الوسطى ، فلم تكن البحـــوث التاريخية التى تقوم على جمع الأصول من المصادر المادية القديمة والكتب .

كما كان يوجد إقبال من بعض المؤرخين على كتابة المختصرات لمؤلفاتهم أو لمؤلفات غيرهم ، وقد إنتقـــد ابن خلدون هذه المختصرات فى الفصل الـــذى عقده فى مقدمته بعنوان " فى أن كـــثرة المختصرات المؤلفـــة فى العلـــوم مخلـــة بالتعليم " .

كما نلاحظ أن المؤرخين فى ديار الإسلام وفى العصور الوسطى كـــــانوا يخلطون الروايات التاريخية الصحيحة بروايات أخرى خرافيـــة أو مدسوســـة أو بعيدة الإحتمال أو أملتها أغراض الرواة وميولهم . ونلاحظ أيضا أنهم كثيرا مـــا كانوا يخطئون فى رواية الأحداث السياسية بسبب الإعتماد فى البداية على الرواية الشفهية وبسبب النقل عن المؤلفات السابقة من دون نقد أو تحقيق.

كما يلاحظ فى كتب التاريخ التى ألفت فى العصور الوسطى قلة العنايـــة بدراسة المجتمع والنظم وسير الأداة الحكومية والمرافق العامة وســـائر النواحـــى الإجتماعية والإقتصادية والمالية والزراعية والصناعية التى نستطيع أن نتبين منـــها أحوال الشعوب الإسلامية ، حتى ليتبادر إلى الذهن أن المؤرخين كانوا لا يظنـــون

أن مثل هذه الدراسات من أهداف الكتابة فى التاريخ . ومن المرجح أن التطـــور البطىء فى أحوال المجتمع ونظمه فى ديار الإسلام فى العصور الوسطى هو السبب فى ذلك لأن هذه الأحوال والنظم كانت ملموسة للقارىء فى ذلك الحين .

ومن الجدير بالباحث أن يعرف سيرة المؤلف ليتبين ميوله وأهواءه وأثرهـــا فى كتاباته ، فمن الممكن أن يكون المؤلف مشايعاً لمذهب أو لحزب أو لفئة معينة من يكتب عنهم فيناصرهم من غير قصد ، أو يتعمد الكـــذب فى الروايـــة ، أو يحرف الحقائق ويحذف بعضها ليقود القارىء إلى نتائج معينة ترفع من شأن مـــن يشايعهم أو تدفع عنهم مسئولية أو عار .وقد يندفع المؤلف إلى البعد عن العدالـــة لتملق أولياء الأمور أو للنجاة من إضطهادهم .

ويجب أن يتذكر الباحث أن كتب التاريخ الإسلامى الـــتى ألفـــت بـــين القرنين الثالث والتاسع الهجرى - التاسع والخامس عشر الميلادى ليست كلـــها مصادر أصليةً لهذا التاريخ ، فهى لا تستوى جميعاً من حيث قيمتها بين المصـــادر الأصيلة للتاريخ الإسلامى .

فهناك مؤلفات عرض فيها أصحابها لأحداث شهدوها أو كانت معـاصرة لهم أو قريبة العهد بهم حداً ، ولا شك أن مثل هذه المؤلفات مصادر أصيلة يجـب الإعتماد عليها مع مراعاة قواعد البحث العلمي من حيـــث النقـــد للمصـــادر والروايات . ومن أمثلة هذا النوع سيرة أحمد بن طولون للبلوى ، وسيرة أحمـــد ابن طولون لابن الداية ، وسيرة الأخشيد لابن زولاق ، و " أخبـــار الراضـــى

والمتقى بالله " للصولى ، و " سيرة صلاح الدين " لابن شداد ، وكتاب "الروضتين فى أخبار الدولتين " لأبى شامة .

ومن بين المصادر التاريخية كتب عنى فيها مؤلفوها القدامى بأحداث عصرهم أو التى سبقته بفترة قصيرة ، وكان أسلوب تأليفهم يشبه إلى حد كبير أسلوب الصحفيين المحدثين فى جمع المعلومات ، فكانوا يتصلون بأعلام المعاصرين وبرجال الجيش والإدارة ويسمعون منهم الأحاديث عن الموضوعات المختلفة . وكان بعض هؤلاء المؤلفين ممن إشتركوا فى الحروب أو فى الدواوين أو فى الوزارة أو شغلوا مناصب رئيسية فى الدولة فكان إعتمادهم عظيماً على إتصالهم بالرجال وبالأحداث نفسها .

ومما لا شك فيه أن لهؤلاء المؤلفين أهمية خاصة فى الكشف عن القيم الأخلاقية فى عصرهم مما يتحلى فى المثل العليا والأهداف عند الأشخاص الذين يصورونهم . كما أننا نستطيع أن نستنبط فى بعض الأحيان من مؤلفاتهم بيانات كثيرة عن الحياة اليومية فى عصرهم ، ويدخل فى هذا النوع من التأليف ما كتبه بعض العظماء والعلماء عن سيرة حياتهم . ومن ذلك سيرة أسامة بن منقذ التى كتبها هذا الأمير العربى المتوفى سنه ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م ، والذى كان وثيق الصلة بكثير من الأحداث السياسية فى عصره .

ما سبق يعتبر حديث عن مؤلفات كتبت فى فجر الإسلام وكان أصحابها يحذون حذو رجال الحديث فى الرواية فيروون أحداثاً كانوا معاصرين لها وأخرى وصلت إليهم عن طريق الرواية. وهذه المؤلفات تعد من المصادر الأصيلة

أيضا ، وطبيعى أن الإعتماد عليها لا يكون إلا بعد النقد العلمى الصحيح للروايات وخير مثال لهذا النوع تاريخ الرسل والملوك للطبرى .

أما النوع الثانى من المؤلفات القديمة فإن أصحابها يعرضون لتاريخ العرب والمسلمين قبل عصرهم ، كما يكتبون فى العاريخ المعاصر لهم . ويكون القسم الأول من كتبهم منقولا عن كتب سابقة ، أما الجزء المعاصر يمتاز بالإحاطة والدراية ، وطبيعى أن الإعتماد فى مثل هذه المؤلفات يكون على الأقسام التى يتحدثون فيها عن الأحداث المعاصرة أو عن تاريخ البلاد التى يعرفونها جيدا من ديار الإسلام فهى وحدها التى تعتبر من المصادر القديمة الأصيلة .

ومن أمثلة هذا النوع كتاب " تجارب الأمم" لابن مسكويه الذى كان طبيبا ووزيرا وتولى الوزارة لبنى بويه ، فإن المؤلف يجمع من الكتب التاريخية السابقة ، ما يكتبه إلى أن يصل إلى سنة ٣٤٠ هـ ولكنه يعتمد فيما يكتبه بعد ذلك على روايات شهود عيان وعلى مشاهداته وخبرته الشخصية .

ويلاحظ أن من أجزاء كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر " لابن خلدون والذى يعتبر من المصادر الأصيلة إنما هو الجزء الخاص بتاريخ البربر والأسرات الحاكمة فى شمال أفريقية ، وهو القسم الذى يمتاز بالشمول والدقة والأحكام الصائبة حتى انه ليرفع صاحبه إلى المرتبة الأولى بين المورخين ، كما ترفعه مقدمة هذا الكتاب إلى مرتبة الأعلام بين المفكرين قاطبة بوصفها أبدع ما كتب فى

فلسفة التاريخ الإسلامي ولأنها تضع أساس كثير من المبادىء الأساسية في علم الإجتماع .

وهناك مؤلفات قديمة ولكنها ثانوية نقل فيها أصحابها عن كتب من النوعين السابقين أو عن كتب ثانوية أخرى ، ومثل هذه المؤلفات ليست مصادر أصيلة لأن كلا منها مختصر لكتاب معين أو جمع من عدة كتب ، تشبه إلى حد كبير كتب التاريخ التي يؤلفها المؤرخون في العصر الحديث ولكنها تقل عن كثير منها في سلامة المنهج .

وعلى الرغم من أن هذا النوع لا يعتبر من المصادر الأصيلة للتاريخ الإسلامي ، لكن كثير منها نافع جدا لأنه منقول عن مصادر أصيلة قد يكون من بينها ما لم يصل إلينا ، فضلا عن أن الرجوع إليها يفيد الدارس من حيث التعرف على وجهات النظر المختلفة ، ومن أمثلة هذا النوع " تاريخ الخلفاء " للسيوطي .

وقد كتب بعض المؤرخين المحدثين دراسات طيبة عن الكتابة التاريخية والمؤرخين المسلمين ، نذكر من بينها :

1- Wustenfeld F. : Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke (Gottingen,1882) .

وفي هذا الكتاب أحصى وستنفلد ٥٩٠ مؤرخا من العرب من مؤرخي العشرة قرون الأولى بعد الهجرة . ونلاحظ مرور أكثر من قرن على ظهور هذا الكتاب ، وقد تقدمت في هذه الحقبة البحوث المختلفة عن المؤرخين المسلمين والعرب في العصور الوسطى ، كما كشفت ونشرت مخطوطات تاريخية مختلفة .

2- Margoliouth D. S. : Lectures on Arabic Histrians (Calcutta , 1930) .

ويعرض مارجليوث فى هذا الكتاب للمؤرخين فى القرون الستة الأولى بعد الهجرة (٧-١٢ م) ولكنه لم يعن بتحليل مؤلفاتهم وبيان قيمتها بقدر مـــا يعنى بتراجمهم .

3-Brokelmann C. : Geschichte der Arabischen Litteratur (2 Vols. Weimar , Berlin 1898-1902 , Supplementband 3 vols. Leiden 1937-1942) .

ويعرض هذا المعجم القيم لجميع الكتب التى ألفها العـــرب فى العصـــور الوسطى فيتحدث عنها فى أقسام وفقا للعصور التاريخية، ويضـــم كـــل قسـم الحديث عن المخطوطات والكتب وفقا لموادها . ويعنى عند الكتابة عـــن كـــل مؤلف بسيرته وبيان قائمة مؤلفاته ومكان حفظ المخطوطات التى وصلت إلينـــا والطبعات التى نشرت منها وما كتب إختصارا لها وتعليقا عليها . وقـــد إنتفـــع بروكلمان فيما كتبه عن المؤلفات التاريخية بما كتبه قبله وستنفلد فى كتابه عــــن المؤرخين العرب ومؤلفاتهم .

٤-جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى (٥ أجزاء - القـــاهرة ، ١٩٠٢-١٩٠٦ م) .

٥- يوسف اليان سركيس : معجم المطبوعات العربيـــة والمعربـــة (القـــاهرة ، ١٩٢٨-١٩٣٠ م) .

ابن خلدون وكتابة التاريخ

يعتبر ابن خلدون ٧٣٢ - ٨٠٩ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦م شخصية فريدة بين عباقرة الحضارة الإسلامية ، ويعتبر ابن خلدون عالم إجتماعي من الطراز الأول ، له نظرياته فى علم الإجتماع العمراني والتحضر . وواضع نظريات علم الإجتماع الذى يتناول الفنون وعناصر الجمال والإدراك الحسي والوجداني . وقد قسم ابن خلدون علمه إلى ست فروع رئيسية فى علم الإجتماع وهي :

١- علم العمران البشرى وأجزاء العالم المتحضر .
٢- علم عمران الصحراء متضمناً القبائل والأمم البدوية .
٣- علم الإجتماع السياسى متضمناً العهود والخلافة والحكم المطلق للملوك .
٤- علم الإجتماع الحضرى متضمناً العمران والمدن .
٥- علم الإجتماع الإقتصادى ، تناول المهن وطرق عمل المعايش .
٦- التعريف بعلم الإجتماع وتناول فى هذا الجزء العلوم وإكتسابها ودراستها

لهذا أجمع علماء الإجتماع على أن ابن خلدون رائد علم الإجتماع والأنثربولوجيا البشرية .

ويعتبر كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر " من أهم المصادر التاريخية لدراسة تاريخ المغرب وحكم بنى الأحمر والأغالبة ، وتاريخ البربر وقبائل زناتة وما كتبه عن تاريخ البربر أعتبر أول دراسة عنهم لأنه عايشهم وشاهد بعض

الأحداث ، كما كان ابن خلدون يعتمد فى كتابة أخباره على الوثائق التاريخية لأهميتها وتصفح أوراق الدواوين واعتمد على الآثار التى تظهر قوة الدولة.

وابن خلدون يعد من أهم من أرخ للحضارة الإسلامية من المؤرخين المسلمين القدماء . فحينما إتجه غيره من المؤرخين المسلمين إلى سرد الأحداث التاريخية والتأريخ للشخصيات و لم يعنوا بدراسة العوامل الإقتصادية والإجتماعية إذا بابن خلدون يعقد فى مقدمته المشهورة فصولاً طويلة للكلام على نظم الحكم والسياسة فى العالم الإسلامى ويبحث ما عرفه المسلمون من مهن وصنائع ونظم إقتصادية وعلوم وفنون ، ويضع لكتابة التاريخ منهجاً جديداً من نقد الحقائق وتعليلها ، ويجعل المجتمع وتكوينه ونظمه وتطويرها موضوعاً للدرس العميق والتفكير الحر . ولكن مما يؤسف له أنه لم يطبق هذا المنهج حين عرض هو نفسه لكتابة تاريخه المشهور : " العبر وديوان المبتدأ والخبر " .

وقد تحدث ابن خلدون عن فن " التاريخ " فى مقدمة هذا الكتاب وذكر المعنى الظاهر لعلم التاريخ والباطن قائلاً : " إذ هو فى ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأولى ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية إذا غصها الإحتفال ، وتؤدى لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، وإتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الإرتحال ، وحان منهم الزوال . وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل فى الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد فى علومها وخليق . وإن فحول المؤرخين فى الإسلام قد إستوعبوا أخبار الأيام وجموعها ، وسطروا فى صفحات

الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وإبتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها . واقتفى تلك الآثار الكبيرة ممن بعدهم وإتبعوها ، وأدوا إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الحديث ولا دفعوها ، فالتحقيق قليل ، وطرف التنقيح فى الغالب قليل والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل ، والتقليد عريق فى الآدميين وسليل ... والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل ، والعلم يجلو لها صفحات القلوب ويصقل ..."

وقد ذكر ابن خلدون ولع الناس بالمبالغة قائلاً : " وقد نجد الكافة من أهل العصر إذا أفاضوا فى الحديث عن عساكر الدول التى لعهدهم أو قريباً منه ، وتفاوضوا فى الأخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى ، أو أخذوا فى إحصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء الموسرين ، توغلوا فى العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الإغراب ، فإذا إستكشف أصحاب الدواوين عن عساكرهم وإستنبطت أحوال أهل الثروة فى بضائعهم وفوائدهم ، وإستجلب عوائد المترفين فى نفقاتهم ، لم تجد معشار ما يعدونه ، وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد " .

ثم تحدث ابن خلدون عن الأخبار الواهية التى يأتى بها بعض المؤرخين فيقول :

" ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة فى أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من

بلاد المغرب ... وكذلك يقولون فى تبع الآخر وهو أسعد أبو كـــرب ... أنـــه ملك الموصل وأذربيجان ولقى الترك فهزمهم ... وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة مـــن بنيه بلاد فارس وإلى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء النهر وإلى بلاد الـــروم ، فملك الأول البلاد إلى سمرقند وقطع المفازة إلى الصين فوجد أخاه الثانى الـــذى غزا إلى سمرقند قد سبقه إليها فأثخنا فى بلاد الصين ورجعا جميعاً بالغنائم وتركـوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهى بها إلى هذا العهد وبلغ الثالث إلى قســــطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع .

وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة عريقة فى الوهم والغلـــط وأشـبه بحديث القصص الموضوعة ... الخ " .

كما يعرض ابن خلدون لعدم تدقيق المؤرخين ونقدهم فيقول عن نكبـــة البرامكة : " ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة فى سبب نكبـــة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد ... وهيـــهات ذلك من منصب العباسة فى دينها وأبويها وجلالها ... فـــأين يطلـــب الصـــون والعفاف إذا ذهب عنها ، أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقدوا من بيتـــها أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجـــم ، وإنما نكب البرامكة ما كان من إستبدادهم على الدولة واحتجافهم أموال الجبايـــة حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليــــه فغلبــوه علـــى أمـــره وشاركوه فى سلطانه ، و لم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه فعظمت آثـارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعـــــهم

وإحتازوا عمن سواهم من وزارة ، وكتابة وقيادة وحجابة ، وسيف وقلـــم ... فكشفت لهم وجوه المنافسة ، والحسد ... الخ "

كذلك يحدثنا ابن خلدون فيما يتعلق بنسب إدريس العلوى:

" ومثل هذا وأبعد منه كثيراً ما يتناجى به الطاعنون فى نسب إدريس بـــن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على ابن أبى طـــالب (رضـــوان الله عليهم) الإمام بعد أبيه بالمغرب الأقصى ويعرضون تعريض الحـــد بـــالتظنن فى الحمل المخلف عن إدريس الأكبر إنه لراشد مولاهم قبحهم الله وأبعدهـــم مـــا أجهلهم".

المصادر والأصول للمؤرخين المحدثين فى التاريخ الإسلامى

إذا كان الهدف الأساسى من من دراسة التاريخ هو الإستفادة مـــن دروس الماضى لمواجهة صعاب الحاضر والإعداد لمستقبل أفضل ، فإن أول مـــا تتطلبـــه هذه الدراسة ممن يقدم على ممارسة صنعة التاريخ أن يلتزم الدقة والحيدة ، وهنـــا يأتى دور المؤرخ للقيام بتفقد المصادر والمراجع ليستمد منها مادته ليقترب مـــن الصورة الحقيقية لأحوال الماضى على الرغم من صعوبة ذلك .

ومن ناحية أخرى فإن على المؤرخ الذى يكتب فى التاريخ الإســـلامى أن يستمد مادته من كتابات ومخلفات السابقين الذين صنعوا التـــاريخ ودونـــوه ، سواء كان سياسياً أو إقتصادياً أو إجتماعياً أو دينياً . وهنـــا فـــإن المصـــادر فى

التاريخ تشكل المنهل الذى يستمد منه المؤرخ العناصر الأولى التى يشـيد منـها بناءه . ومن ثم يجب على الدارسين فى التاريخ الإسلامى أن يفطنـوا إلى أهميـة تاريخ الحضارة فى بحوثهم ، فالواقع أن التاريخ السياسى والحضارى لازمان معـاً لفهم ماضى أى أمة فهماً صحيحاً يبرر دراسة الماضى للإستعانة بـه فى فـهم الحاضر وإعداد العدة للمستقبل .

ومن الجدير بالذكر أن دراسة المجتمع ونظمه الإقتصادية والإجتماعيـة لم تكن مجهولة تماماً عند المولفين المسلمين فى العصور الوسطى. فإننا نجـد قسـطاً كبيراً منها ولكننا لا نظفر بها مجموعة أو مركزة عند طائفة معينة منهم ، فإننـا نعثر عليها فى كتب التاريخ والأدب والطبقات والفقه وكتب الخطط والرحـلات وتقويم البلدان.

كتب الخطط :

من المعروف أن الخِطة وجمعها خطط هى الأرض التى ينزلها الإنسـان و لم ينزلها من قبله نازل ، أو ما يختطه الإنسان لنفسه من الأرض أى يجعل لها حـدوداً ليعلم أنها له . وقد إتسع معناها فامتد إلى الحى الذى تختـص بـه القبيلـة أو أصحاب مهنة واحدة أو طائفة من الناس عند تعمير مدينة من المدن .

وقد كتب بعض المؤرخين المسلمين القدماء فى الخطط ولكن أشهر كتـب الخطط " كتاب المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار " للمقريزى . ويصـف المقريزى فى هذا الكتاب المدن والأحياء المختلفة والأسوار والعمـائر ، ويتكلـم

أيضاً على السكان ومشيدى العمائر المختلفة كما يتطرق إلى تاريخ مصر فى العصور الإسلامية ، ويعنى عناية خاصة بآثارها وبحضارة الشعب المصرى آنذاك

كتب الطبقات :

من المؤلفات العربية التى تضم كثيراً عن الأحوال السياسية والاجتماعية والأدبية فى المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى كتب التراجم ، وكتب الطبقات التى تتألف من سير طائفة معينة من الفقهاء أو العلماء أو الأدباء أو أصحاب المهن جيلاً بعد جيل ، ومن بين تلك المؤلفات :

المؤلف	المصدر
ابن خلكان	وفيات الأعيان
ابن شاكر الكتبى	فوات الوفيات
ابن الأثير	أسد الغابة فى معرفة الصحابة
الصفدى	الوافى بالوفيات
ابن القفطى	إخبار العلماء بأخبار الحكماء
ابن أبى أصيبعة	عيون الأنباء فى طبقات الأطباء
الزبيدى	طبقات النحويين
السبكى	طبقات الشافعية
السلمى	طبقات الصوفية
ابن يعلى	طبقات الحنابلة
ابن المعتز	طبقات فحول الشعراء
ابن الأثير	اللباب فى تهذيب الأنساب

الخشنى	قضاة قرطبة
ابن جلجل	طبقات الأطباء والحكماء
السخاوى	الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع

كتب الجغرافية :

كانت الجغرافية عند المسلمين وثيقة الصلة بالتاريخ ، وكانت المؤلفات الجغرافية العربية تضم حقائق كثيرة يجب الإفادة منها فى البحوث التاريخية ولا سيما أن كثيراً منها كان يعنى بوصف البلاد وبيان المسافات بينها ومواصلات كل منها وما يؤلف شهرتها وعادات أهلها .

كما كان من بين هذه الكتب ما يهدف فقط إلى تثقيف القارئ وتسليته فيعرض لكثير من النواحى التاريخية والأدبية والإجتماعية والإقتصادية مما تصبح مصدراً عظيماً لأحوال العالم الإسلامى فى العصور الوسطى .

وقد عنى المستشرقون بطبع طائفة من الكتب التى ألفها المسلمون فى تقويم البلدان وعلى رأسها المجلدات التى أخرجها دى جويه باسم المكتبة الجغرافية العربية :

المجلد الأول : - الأصطخرى : مسالك الممالك (الطبعة الثانية - ليدن ١٩٢٧ م) .

المجلد الثاني : – ابن حوقل : المسالك والممالك (ليدن ١٨٧٣م) ثم طبعت له طبعة أكمل ومصحوبة بالخرائط على يد كرامرز في ليدن سنة ١٩٣٨م . .

المجلد الثالث : – المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (الطبعة الثانية – ليدن ١٩٠٦ م) .

المجلد الرابع : – شروح وفهارس للمجلدات الثلاثة الأولى.

المجلد الخامس : – ابن الفقيه الهمذاني : مختصر كتاب البلدان (ليدن ١٨٨٥م) .

المجلد السادس : – ابن خرداذبة : المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩م) .

المجلد السابع : – ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، واليعقوبي: كتاب البلدان (ليدن ١٨٩٢م) .

المجلد الثامن : – المسعودي : كتاب التنبيه والأشراف ، ومعه شروح وفهارس للمجلدين السابع والثامن (ليدن ١٨٩٤م) .

ومن أهم المصادر الجغرافية الغنية بالبيانات التاريخية :

- ياقوت الحموي : معجم البلدان .
- ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية .
- الإدريسي : نزهة المشتاق في إختراق الآفاق .
- الإدريسي : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، عن نزهة المشتاق .

ويعتبر المرجع الأساسى للبيانات المختلفة عن الأقوام الرحل فى مناطق الإستبس وبلاد ما وراء النهر وجنوبى روسيا هو الكتاب الفارسى المؤلف سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م والذى يعرف باسم " حدود العالم " .

ومن المراجع الجغرافية الحديثة والمستمدة من الكتب الجغرافية التى ألفها المسلمون فى العصور الوسطى كتاب :

G. Le Strange : The lands of the Eastern Caliphate . (2 nd ed. Cambridge 1930) .

وهو يتناول وصف العراق والجزيرة وإيران وأقاليم آسيا الوسطى منذ الفتح الإسلامى حتى أيام تيمور . وقد نقله إلى العربية وأضاف إليه تعليقات جغرافية وتاريخية وأثرية ووضع فهارسه الأستاذان بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ونشر فى مطبوعات المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٥٤م .

كتب الرحلات :

كان للمسلمين فى العصور الوسطى السبق فى ميدان الرحلات والإستكشافات والدراسات الجغرافية . وهناك الكثير من الأسباب التى أدت للقيام بالرحلات الطويلة مثل : إزدهار الحضارة الإسلامية وإتساع الفتوحات وسيادة المسلمين فى البر والبحر ، وروابط الدين واللغة والثقافة التى كانت تجمع المسلمين فى أطراف امبراطوريتهم ، والرحلة فى طلب العلم أو لتأدية فريضة الحج ، وإتساع نطاق التجارة ، وإنتشار قوافل التجار المسلمين فى القسم الأعظم من العالم المعروف فى ذلك العهد .

وقد كتب المسلمون كثيراً عن رحلاتهم فيما بين القرنين الثالث والتاسع الهجريين - التاسع والخامس عشر بعد الميلاد ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك فى مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً ، أما معظمهم فقد أدمج حديث لتلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان .

وإن أقدم ما وصلنا من قصص رحلات المسلمين إنما يصف الصين والهند وبلاد البلغار وجنوبى روسيا . ثم بدأ الجغرافيون فى القرنين الثالث والرابع الهجرى يؤلفون فى تقويم البلدان ويصفون أجزاء إمبراطوريتهم وما يجاورها من الأقاليم . وإمتاز الجغرافيون فى القرن الرابع الهجرى بأن معظمهم كانوا رحالة جمعوا كثيراً مما كتبوه بواسطة المشاهدة والأسفار .

وفى القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى قام ناصر خسرو الفارسى برحلات طويلة فى الشرق الأدنى وخلف هذا الرحالة وصفاً دقيقاً يحمل على القول بأنه كان يدون مشاهداته أولاً بأول ، وأنه كان شديد العناية بالإتصال بالشعوب الإسلامية التى يزورها وبتفهم مظاهر الحضارة التى يشاهدها وحسبنا أن نشير إلى وصفه مدينة القاهرة وكلامه عن مصر فى عصر الخليفة العباسى المستنصر بالله ، وعنايته بدراسة الأعياد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق وإلى وصفه الحرم الشريف بالقدس .

ثم إزدادت الرحلات فى ديار الإسلام منذ القرن السادس الهجرى، وكان من أهمها ما قام به أهل المغرب إلى الشرق الإسلامى وعلى رأسهم ابن جبير

الأندلسى الذى سافر من ميناء سبتة سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م على سفينة من سفن جنوه إلى الاسكندرية مارة بجزائر البليار وسردانية وصقلية .

وفى مصر إتجه إلى قوص فى الصعيد وسافر منها إلى عيذاب بطريق الصحراء ، ثم عبر البحر الأحمر على ظهر مركب من المراكب التى تنقل الحجاج بين عيذاب وجدة . ويمم ابن جبير شطر العراق بعد أداء فريضة الحج ، وإتجه بعد ذلك إلى الشام حيث إستقل سفينة جنوية أخرى إلى ثغر قرطاجنة بالأندلس . وهكذا عاد إلى بلاده بعد أن غاب عنها نحو سنتين وثلاثة أشهر . ثم قام برحلة ثانية إلى الشرق الإسلامى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩م، وبرحلة ثالثة سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م .

وقد دون ابن جبير رحلته الأولى فى شبه مذكرات يومية غنية بالبيانات الممتعة عن البلاد التى مر بها وأحوالها وسماها "تذكرة بالأخبار عن إتفاقات الأسفار " .

ومن كتب الرحلات الغنية بالدراسات الإجتماعية كتاب "الإفادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر " ، وهو وصف رحلة قام بها إلى مصر طبيب عراقى اسمه عبد اللطيف البغدادى ، وكتب فيها عن وادى النيل فى نهاية القرن السادس الهجرى - أواخر القرن الثانى عشر الميلادى . ويمتاز وصفه بالدقة والتعرض لمختلف الشئون العمرانية والإجتماعية ، فضلاً عن الإتجاه العلمى المنتظر من طبيب مثل البغدادى والذى يتجلى فى

وصف نبات مصر وحيوانها وآثارها القديمة مثل الأهرام وأبى الهول والمسلات والمعابد فى مصر العليا وفنار الإسكندرية وعمود السوارى .

ومن الطبيعى أن يفيد الباحثون فى التاريخ الإسلامى من رحلة ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى - الرابع عشر الميلادى ، ولا عجب فهو من أعظم الرحالة المسلمين ، ومن أكثرهم طوافاً فى الآفاق وأوفرهم نشاطاً وإستيعاباً للأخبار ، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الإجتماعية فى البلاد التى تجول فيها .

وقد غادر ابن بطوطة وطنه طنجة فى مراكش سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م لأداء فريضة الحج ، ومر ببلاد الجزائر وتونس ومصر والشام ، ثم غادر الحجاز إلى العراق بعد موسم الحج ، وطاف ببعض بلاد إيران والجزيرة وعاد إلى الحجاز ومنه إلى اليمن، ثم سافر إلى الشام وآسيا الصغرى وشبه جزيرة القرم والقوقاز وإقليم الفولجا والقسطنطينية . ثم خوارزم وبخارى وسمرقند ونيسابور وغزنة وكابل ، ودخل بعد ذلك بلاد الهند وإتصل بسلطانها محمد بن تغلق ، ثم تولى رياسة وفد أرسله هذا السلطان إلى ملك الصين معرجاً على سومطرة ، ولكنه لم يعد إلى الهند بل إتجه إلى العراق ثم الشام ثم مصر وتونس ، ووصل أخيراً إلى وطنه .

ثم قام برحلة ثانية زار فيها الأندلس ، وثالثة إلى مملكة المسلمين فى السودان الغربى . وعاد بعد ذلك إلى بلاط السلطان أبى عنان المرينى فى فاس سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م ، وأعجب السلطان بما كان ابن بطوطة يقصه من

أحاديث أسفاره ، فأمر كاتبه محمد بن جزى الكلبي أن يدون ما يمليه عليه ابن بطوطة ، فقام بكتابتها وتلخيصها ، وترتيبها ، وإضافة بعض الأشعار عليها وتحقيق بعض أجزائها مستعيناً بكتب الرحلات آنذاك ولا سيما رحلة ابن جبير وقد سمى ابن جزئ رحلة ابن بطوطة " تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " وفرغ منها سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م .

والواقع أن ابن بطوطة خلف لنا صورة صادقة للعصر الذى كان يعيش فيه ، أما بعض الإضطراب فى رحلته فإنما يرجع إلى أنه لم يدون رحلته بنفسه وأن جزى عدل فى بعض أخبارها بالحذف أو بالإضافة بعد أن راجع طائفة من كتب الأسفار الأخرى .

القصص الشعبية :

تعتبر القصص الشعبية من المصادر التى يجب أن يأخذها المؤرخ الإسلامى بنظر الإعتبار . ولكن إستنباط الحقائق منها يجب أن يكون بحذر شديد لأنها إعتمدت فى البداية على الرواية الشفهية و لم تسجل إلا فى عصور متأخرة ، فضلاً عن أن هدف هذه القصص كان للتفاخر وتسلية السامعين وكسب إعجابهم بمواقف الأبطال وسائر المواقف المثيرة فى القصص .

وقيام هذه القصص فى البداية كان على أساس من الغزوات والفتوح الإسلامية فكانت سليمة فى جوهرها إلى حد كبير ، ثم قامت إلى جنب قصص المغازى قصص شعبية أخرى ، بعضها عن أبطال العرب فى الجاهلية مثل قصة عنترة ، وبعضها الآخر عن الجهاد ضد بيزنطة ، أو عن بنى هلال ونزوحهم إلى

شنال إفريقية، وبعضها عن أبطال التاريخ الإسلامى مثل قصة الظاهر بيبرس السلطان المملوكى .

كتب الأدب :

إن الكتب الأدبية معين لا ينضب للحقائق التاريخية المختلفة عن أحوال المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى ، ولا سيما من نواحى الذوق والعادات ، والمقاييس الخلقية والمثل العليا ، ومستوى المعيشة ، والأعياد وأساليب التسلية ، وأحوال المدن وغير ذلك من النواحى الإجتماعية . كما أننا نظفر فيها ببعض الحقائق عن التاريخ السياسى . والواقع أن كثيراً جداً مما نعرفه عن الدولة الأموية مستمد من كتب الأدب .

ونلاحظ فى كثير من كتب الأدب الإقبال على سرد النوادر المنسوبة إلى شخصيات معروفة فى التاريخ الإسلامى ، ولكن ذلك أمر لا يمكن الإطمئنان إليه حيث كانت بعض تلك النوادر من الأقاصيص التى تتكرر فى كتب الأدب وتنسب إلى أشخاص مختلفين وفى مناسبات مختلفة.

وفيما يلى بيان ببعض الكتب الأدبية التى يفيد منها الباحث فى التاريخ الإسلامى :

- الإبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف .
- الأصفهانى "أبو الفرج" : كتاب الأغانى .
- ابن الأنبارى : نزهة الألبا فى طبقات الأدبا .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد .

- ابن قتيبة : عيون الأخبار .
- البيرونى "أبو الريحان" : الجماهر فى معرفة الجواهر .
- التنوخى : الفرج بعد الشدة ، المستجاد من فعلات الأجواد.
- الجاحظ : البيان والتبيين ، البخلاء ، الحيوان ، التبصر بالتجارة .
- الخوارزمى : مفاتيح العلوم .
- المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .

كتب الفقه :

الفقه هو علم إستنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث ، والقياس والإجماع ، وتعنى كلمة " الفقه " لغة الفهم أو المعرفة . وترجع أقدم الكتب التى وصلت إلينا فى هذا العلم إلى القرن الثانى الهجرى مثل كتاب "الخراج" لأبى يوسف ، و "الجامع الكبير" و "الجامع الصغير" و "كتاب السير الكبير" للشيبانى و"الموطأ" لمالك و "الأم" للشافعى .

وفى كتب الفقه يجد المؤرخ بيانات كثيرة عن أحوال الشعوب ونظمها فى العصور الوسطى ، حيث يتجه الفقهاء فى بحوثهم إلى كافة طبقات الشعب وإلى الجوانب المختلفة من حياة المسلمين ، ولا عجب إذا كانت مؤلفاتهم غنية بالإشارات إلى مستوى المعيشة والأحوال الإجتماعية والإقتصادية والمالية وإلى الأخلاق والعادات وإلى البدع المنتشرة بين طبقات الشعب . والواقع أن ما يكتبه الفقهاء عن هذه البدع وما نقرأه فى مؤلفاتهم من الفتاوى فى القضايا الحالات المعينة التى يطلب إليهم فيها من قبل أولى الأمر والأمراء يعتبر مصدرا

ثميناً للمعلومات عن الأحوال التى كان المسلمون يعيشون فيها والمشكلات التى تطرأ على حياقم والعادات التى تنتشر بينهم .

ولكن يجب على المؤرخ أن يكون حذراً فى إستباطه من كتب الفقه ، فإن ما يكتبه الفقهاء قد يكون نظرياً وبعيداً عن الواقع . ومن الأمثلة المشهورة لذلك ما ذهب إليه بعض الفقهاء عن المساواة بين الذميين بمصر فى دفع الجزية ، وفيما ذهب إليه فقهاء آخرون فى أن ولاة الأمور كانوا يعتبرون فى فرض الجزية أن الناس ثلاث مستويات فقط ، فيؤخذ من الموسر ثمانية واربعون درهما ، ومن الوسط أربعة وعشرون ، ومن دون الوسط اثنا عشر درهما .

ولكن الوثائق البردية التى ترجع إلى عصر الولاة ، الذى يمتد من فتح العرب لمصر إلى مجىء أحمد بن طولون إليها ، تبين أن الجزية كانت تختلف من شخص لآخر وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية ، ويشهد هذا بأن الجزية كانت تقدر على أساس ثروة كل شخص .

كتب الحسبة :

تعتبر كتب الحسبة غنية بالبيانات المختلفة عن الحياة الإجتماعية فى ديار الإسلام ، والمعروف أن المحتسب كان يسهر على مراقبة المجتمع وحماية الناس من غش التجار والصناع ، كما كان يشرف على نظام الأسواق والطرقات والعمال والباعة ويعمل بوجه عام على حسن السلوك ومراعاة أحكام الشرع .

وكتب الحسبة تفصل القول فى واجبات المحتسب ، ومن أهم هذه الكتب:

- محمد بن محمد بن أحمد القرشى (ابن الأخوة) : كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة .
- عبد الرحمن بن نصر الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة.
- أحمد بن تيمية : الحسبة فى الإسلام .
- أبو عبد الله السقطى : آداب الحسبة .

الصلة بين كتابة التاريخ الإسلامى وبين علم الآثار

علم الآثار هو العلم الذى يدرس الماضى على ضوء جميع المخلفات التى تصل إلينا منه . ويستخدم عالم الآثار فى الوصول إلى أهدافه العلمية كل ما يتصل بعلم الآثار من أنواع الدراسات المختلفة مثل علم ما قبل التاريخ وعلم المسكوكات ، فضلاً عن دراسة الكتابات التاريخية الأثرية ، وعلم الأجناس ، وتاريخ الفنون من عمارة ونحت وتصوير وفنون تطبيقية وزخرفية ، ثم علم الأوراق البردية .

ويساعد علم الآثار فى سد الفراغ الذى نلمسه فى المصادر الأدبية التاريخية، كما أنه يصحح فى بعض الأحيان أخطاء تاريخية مشهورة . فقد كان من المعروف أن التربية والحياة فى أسبرطة ببلاد اليونان كانت تتسم دائماً بالقسوة والشدة ، وأن هذه الشدة ترجع إلى تقاليد قديمة فى تاريخ اسبرطة .

ولكن الحفائر التى تمت فى هذا الإقليم بين سنتى ١٩٠٥ و١٩١٢م كشفت عن كثير من مظاهر البذخ والترف والغنى فى حياة اسبرطة فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد . وهكذا توصلنا إلى أن الشدة فى الحياة الاسبرطية التى بدأت فى القرن السادس قبل الميلاد لم تكن إلا رد فعل للقرنين السابقين اللذين ساد فيهما الترف ، ولذا لجأت اسبرطة إلى الشدة لدرء الخطر الذى تعرض له شعب اسبرطة بسبب ذلك الترف وبسبب قلة عدده بالنسبة للشعوب التى كانت تخضع له .

وقد كان الباحثون فى تاريخ العصور القديمة يدركون الصلة الوثيقة بين علم التاريخ والآثار ، فمؤرخ أى عصر من العصور القديمة لابد أن يكون عالماً من علماء الآثار فيه ، أو على أقل تقدير يعتمد على النتائج العلمية التى يصل إليها رجال الآثار فى حضارة المناطق التى يشتغل بتاريخها لأن مخلفات تلك العصور هى المرجع الأساسى فى تاريخها .

أما مؤرخو التاريخ الإسلامى فإن البعض منهم لا يزال يعتقد أن فى الإستطاعة كتابة تاريخ الشعوب الإسلامية بغير إستعانة بالآثار ، ولكن هذا الزعم يؤدى إلى نتائج غير مرضية فى دراسة التاريخ الإسلامى . فلابد أن يلم المؤرخ الإسلامى بالآثار الإسلامية ، أو على الأقل يحسن إستخدام النتائج العلمية التى توصل إليها علماء الآثار الإسلامية . ويكفى أن نذكر أن أعلام المؤرخين للتاريخ الإسلامى من بين المستشرقين منذ بداية القرن الحاضر من علماء الآثار الإسلامية مثل مرجليوث ، و توماس أرنولد ، و لين بول من

الإنجليز ، و بيكر من الألمان ، و جورج مارسيه ، وليفي بروفنسال من الفرنسيين .

ومن الدراسات التي يجب أن يستخدمها المؤرخ في بحوثه في تاريخ العرب والمسلمين هي :

- الوثائق والأوراق البردية .
- الآثار .
- النقوش .
- المسكوكات .
- تاريخ الفنون .

• الوثائق و الأوراق البردية :

نقصد بالوثائق الأوراق الرسمية في الدول الإسلامية ، وتأتي في المقام الأول بين مصادر التاريخ الإسلامي لأنها تحتوي على مادة تاريخية غير قابلة للتغيير مثل : الرسائل ، سجلات العطاء ، والأوامر القضائية والمالية ، والأحكام والفتاوى ، والمعاهدات ، وتقاليد الولاة والموظفين .

وقد كانت هذه الوثائق تصدر عادة عن الدواوين وبخاصة ديوان "الإنشاء والمكاتبات" ، الذي كان يقوم بتنفيذ أوامر السلطة العليا في الإدارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ويقوم أيضا مقام دار الأرشيف الحالية في الإحتفاظ بالمهم منها أو بصورة خطية لها ، وكان يوجد في ديوان الإنشاء بجانب وظائف الكتاب الرئيسيين الذين يقومون بكتابة الأوراق أو المكاتبات الرسمية ، وظائف :

" **الناسخ** " : الذى يقوم بنسخ أو تبييض كل ما يرد إلى الديوان أو يصدر عنه .

و" **الخازن** " : الذى يجمع كل نوع من المكاتبات الرسمية إلى مثله فى دوسيهات ويضع عليها بطائق مكتوب فيها محتوياتها وإقليمها وتواريخ وصولها ، ليسهل التعرف عليها .

وقد كانت الأوراق الرسمية تكتب فى أول الأمر بلغات الشعوب التى أخضعها العرب فكان ديوان الشام يكتب باللغة الرومية أو باليونانية ، وديوان العراق باللغة الفارسية ، وديوان مصر اللغة القبطية ، وديوان إفريقية باللاتينية ، ولم تكتب الأوراق الرسمية باللغة العربية إلا إبتداء من عهد الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٥-٧٠٥م) ، الذى أمر بتعريب الدواوين .

وعلى الرغم من أهمية الوثائق الإسلامية فى كتابة التاريخ الإسلامى إلا أن معظمها سواء كانت مكتوبة باللغة العربية أم بلغات أخرى لم يعثر عليها ، ويبدو أن السبب الرئيسى فى ضياعها يرجع إلى أن العالم الإسلامى بعد أن كان وحدة سياسية إلى آخر عهد الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م ، انقسم على نفسه نتيجة لظهور حركة الشعوبية أو القومية عند الشعوب غير العربية التى اعتنقت الإسلام ، مما أوجد حركة انفصال وتعصب استمرت حتى غزوة الأتراك العثمانيين للشرق سنة ٩٢٢-٩٢٣هـ / ١٥١٦-١٥١٧م ، مما كان سبباً فى تلف وضياع معظم الأوراق الرسمية ، ولم يبق إلا مجموعة قليلة جداً من وثائق الدواوين خاصة بمصر موزعة بين عدة من مكتبات .

ومن أسباب فقر الأمم الإسلامية فى الوثائق والمخطوطات من العصور الوسطى أن القرآن والسنة كانا هما أساس الحكم فى ديار الإسلام وأن مشيئة الخليفة أو السلطان لم تكن تنفذ إلا فى حكمه، و لم تكن تكسب حقاً يحرص مكتسبه على الإحتفاظ بالوثائق التى تثبت هذا الحق ، لأن مثل هذه الوثائق كانت عديمة القيمة إذا لم يؤيدها الشرع . وفضلاً عن هذا فإن المسلمين كانوا متساوين أمام الشرع .

ولم يكن للمجتمع الإسلامى هيئات لها شخصية معنوية كالكنيسة ورجالها فى المجتمع الأوربى ، كما لم يكن فيها أمراء اقطاعيون بالمعنى المعروف فى العصور الوسطى الأوربية ، ولا نقابات قوية ، ولا مدن حرة شبه مستقلة فى نظامها الإدارى والمالى على النحو المعروف فى أوربا فى العصور الوسطى . وقد كانت كل هذه الهيئات تحتفظ بالوثائق التى تثبت ما تكتسبه من حقوق كما كانت تحتفظ بكثير من الأوراق الخاصة بشئونها الإقتصادية والمالية والإجتماعية.

كذلك فى الشئون القضائية كان إعتماد القضاة فى الإسلام على سماع الشهود العدول و لم تكن هناك وثائق كثيرة مكتوبة فى هذا المجال اللهم إلا فى أمور الوقف .

وترجع معظم الوثائق الإسلامية التى عثر عليها إلى مصر فى فجر الإسلام. ولهذه الوثائق شأن كبير فى دراسة الحياة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والمالية ، إذ أن من بينها أوراقاً بردية تتعلق نصوصها بالجزية والخراج وإسناد المناصب وأنظمة الإدارة وطرق التجارة وبناء العمائر والمساجد وإنشاء

الأساطيل، فضلا عن عقود الزواج والبيع والشراء وما إلى ذلك من المكاتبـــات الخاصة التى تكشف عن بعض العادات والنظم الإجتماعية .

وقد إتجهت العناية إلى دراسة الأوراق البردية منذ عـــثر عليـها بعـض الفلاحين فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٢٤م على جرة صغـــيرة فيها ورقتين مكتوبتان باللغة العربية ، وأرسلها دروفتى قنصل فرنسا فى القـــاهرة حينذاك إلى المستشرق سلفستر دى ساس فكتب مقالا عنهما فى "مجلة العلمـــاء" فى باريس سنة ١٨٢٥ م . وفى النصف الثانى من القرن الماضى إزداد العثور علـى البرديات المكتوبة باليونانية والقبطية والعربية .

وبيع معظم هذه الأوراق إلى الأوربيين فتفرق فى المكتبـــات والمتـــاحف والمجموعات الأثرية ولا سيما فى فينا ولندن وباريس ، ولكن دار الكتب المصريـة لا تزال تحتفظ بمجموعة ثمينة من أوراق البردى العربية التى كشفت فى الفيـوم أو غيرها من البلاد المصرية كأخميم والأشمونين وأهناسيا وإدفو .

• الآثار وتاريخ العمارة :

وتلقى الآثار ضوءا كبيرا على التاريخ الإسلامى فهى مثـــل الوثـــائق فى القيمة . وقد كان للعرب آثارهم قبل الإسلام فى مواطن استقرارهم فى أطـــراف شبه الجزيرة العربية : ففى الجنوب نجد بعض آثار فى " معين " و"سبأ " وغيرهـــا من مدن اليمن ، أما فى الحجاز ، فإن أهم آثار العرب الكعبة فى " مكة " ، وفى الشام نجد آثار النبطيين فى عاصمتهم " البتراء" فى شرق الأردن بـــالقرب مـــن العقبة ، وآثار مملكة الآرامين وعاصمتها "تدمر " بالقرب من مدينة حمص .

ولما جاء الإسلام وانتشر فى بلاد عديدة انتشرت آثاره فى معظم البلاد التى تم فتحها من أقصى الغرب فى الأندلس إلى أقصى الشرق فى التركستان ، وتتمثل الآثار الإسلامية فى : المساجد ودور الإمارة والمشاهد والقلاع ، وكان هناك تنافس بين الحكام المسلمين فى البناء ، فاستعانوا بالبنائيين وكل من له دراية وخبرة فى المعمار سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم من أهل البلاد المفتوحة، مما أوجد ابتكاراً فى البناء وميز آثار بعض المناطق فى طرزها عن غيرها، فنستطيع أن نبحث عن حضارة الفاطميين فى آثار مصر ، وحضارة الأمويين فى آثار بلاد الشام ، وحضارة العباسيين فى آثار بلاد العراق وقد رأى ابن خلدون أن الآثار تكون على نسبة قوة الدولة ، ولا شك أن الآثار هى من المصادر الهامة لدراسة التاريخ الإسلامى .

• النقوش :

وهى مثل الوثائق الرسمية والآثار فى القيمة التاريخية ، ونقصد بالنقوش حروف الكلمات وأوضاعها وكيفية تركيبها ، وقد عرف النقش منذ قدم الزمان فى شبه جزيرة العرب ففى بلاد اليمن وجدت نقوش على لوحات البرونز، وأعمدة الرخام ، والمقابر ، مكتوبة بالخط السبئى والحميرى أو ما يعرف بالخط المسند ، وهو يختلف عن الحروف العربية ويمت بصلة إلى الحروف الأثيوبية ، وفى بلاد الشام وجدت نقوش على الأحجار والقبور تنتمى إلى القرن الثانى قبل الميلاد، وهى مكتوبة بما يسمى الخط اللحيانى والثمودى - نسبة إلى اللحيانيين والثموديين ، الذين ظهروا فى شمال شبه الجزيرة العربية - لعدم وجود الخط العربى ، وإن وجد فيها بذور الحروف الأبجدية العربية .

وحينما ظهر الإسلام أصبح الخط العربى أساس النقش فى البلاد التى فتحها العرب المسلمون ، بحكم كونه الخط الذى كتب به القرآن الكريم والحديث ، ثم صار أساس النقش حتى غلب على خطوط الشام ومصر وفارس والمغرب والأندلس، وتعدى حدود الهند والصين ، بل أن بعض الخطوط القديمة مثل : القبطية والآرامية والسريانية والفارسية واليمنية وغيها اندثرت أمام الخط العربى .

وتشير الروايات التاريخية إلى أن أول من كتب باللغة العربية إسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، جد العرب ، ولكن من المعروف أن اللغة العربية لم تقم لها قائمة فى التدوين إلا بظهور الإسلام ، وقد كان أساس النقش العربى فى أول الأمر ، الخط الكوفى ، نسبة إلى مدينة الكوفة العراقية ، وهو الخط المربع ذو الزوايا، ثم تطور هذا الخط فاستنبطت منه أقلام أهمها فى النقوش: الخط المستدير أو النسخى والرقعة والثلث والمغربى .

غير أنه ينبغى علينا أن نذكر أننا لا نجد من النقوش عند أمة من الأمم مثل النقوش الإسلامية ، فقد فهم الفنانون المسلمون القيمة الزخرفية للحروف العربية ، فزخرفوا بها قطع الخشب والزجاج والخزف والمعادن والأحجار ، وإن يكن فلك رموز النقش العربى بمكان ، لأن الفنان المسلم كان يتفنن بالحروف من الناحية الزخرفية فيدور بها ويصعد وينزل ، ويعطيها حقها فى الطول والقصر والرقة والغلظ والفصل والوصل ، حتى يخرج منها تحفة فنية رائعة الجمال . وقد يظن القارىء للنقوش العربية أنه لا يستطيع أن يفك رموزها ، ولكن سرعان ما يتعود عليها بالمران .

ونلاحظ أن أغلب النقوش الإسلامية لا تعطى القيمـــة التاريخيـــة الـــتى تعطيها النقوش الأخرى مثل اليونانية أو اللاتينيـــة ، لأن شـــرائط الكتابـــة فى المساجد والقصور والقلاع أو حتى علـــى أوانى الشـــرب أو المنســـوجات..الخ معظمها يدور حول صيغ دينية، فهى إما آيات قرآنية أو أحـــاديث أو حكـــم ، وإن كانت بعض النقوش العربية تشمل على أوامر وألقاب وتواريخ ذات أهميـــة عظيمة فى مجال البحث التاريخى .

ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن ننقص من القيمة التاريخية للكتابات الأثريـــة الإسلامية بوصفها مصدرا من المصادر الأصيلة فى دراسة التـــاريخ الإســـلامى . ذلك أنها تمتاز عن غيرها بأنها معاصرة للحقائق والأحداث التى تسجلها وبأنهـــا أكثر حيادا من كتابات المؤرخين المسلمين الذين قد يتعصبون لمذهب دينى ســـائد فى دولتهم .وتمتاز أيضا بأن تواريخها صحيحة ، كما يقل التحريف فى الأسمـــاء المختلفة فضلا عن أنها تزيد المعروف من أسماء الموظفين ، وتلقى الضوء فى بعـــض الأحيان على الإدارة وأحوال المجتمع ونظمه المالية والإقتصادية . كما أنها تفيـــد كثيرا فى مراقبة أقوال المؤرخين وإثبات صحتها أو الكشف عن أخطائها .

• **المسكوكات :**

وتشمل العملة الرسمية فى الدول إسلامية سواء كانت مـــن الذهـــب أو الفضة أو النحاس ..ألخ ، واهمية المسكوكات تتمثل بصفـــة خاصـــة فى أنهـــا تساعدنا على ضبط التواريخ والأسماء ، وتلقى بعـــض الضـــوء علـــى التطـــور السياسى والدينى والإقتصادى .

وقد كان العرب فى أول عهدهم لا يعرفون العملة إلا فى يد تجار قريـــش او فى قول الشعراء ، وإن عرفتها ممالكهم فى أطراف شبه الجزيرة العربية مثـــل : اليمنيين والغساسنة واللخميين . ومع ظهور الإسلام فى أقطار كثـــيرة ، بقيـــت العملة المتداولة هى العملة التى كانت سائدة فى هذه الأقطـــار مـــن قبـــل ، و لم تستعرب هذه العملة إلا فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، الذى أمر أن تسك باسمه وأن تنقش باللغة العربية .

وقد اتخذت العملة فى جميع البلاد الإسلامية حتى بعد أن تعددت خلافاته ودوله اسم : " السكة " وهذه الكلمة حسب قول ابن خلدون ، تدل على خاتم الحديد الذى كانت تطبع عليه العملة أو تضرب عليه بالمطرقة ، ولذلـــك فـــإن لفظة " السكة " كانت تطلق أيضا على الدار التى تصنع فيها العملة ، فسـميت : "دار السكة " أو " دار الضرب " .

وكانت السكة الإسلامية على أنواعها : الذهبية والفضية والنحاســـية ، ينقش على أحد وجهيها الصيغة الدينية ، التى تشمل علـــى عقيـــدة الدولـــة أو الخلافة الدينية، فمثلا عند الشيعة كانت الصيغة الدينية التى تنقش على العملـــة : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، على ولى الله" وعلى الوجه الآخر يذكر أســـم الخليفة وأحيانا اسم الوزير ، وقد ينقش اسم ولى العهد ، كما كان يؤرخ للســـنة التى ضربت فيها العملة ، ويكتب اسم بلد الضرب .

ومن العملات الإسلامية الخفيفة ذات الشكل الأنيق والتى كانت تضـــرب فى بعض المناسبات مثل الأعياد ، تلك العملة التى كان يضربهـــا الفـــاطميون فى

مصر فى بداية العام الهجرى وتسمى : "الغرّة " ، والعملة التى كانت تضرب برسم خميس العهد - وهو من الأعياد التى يسميها أهل مصر بالغلط " خميس العدس " - عيد من أعياد نصارى مصر وتسمى هذه العملة : " خرّوبة " . وقد أدرك بعض مؤرخو الإسلام القدامى أهمية النقود فى دراسة التاريخ، فأرخوا للنقود الإسلامية ، ولعل أهم ما وصلنا من المؤرخين فى الإسلام عن السكة ، من المؤرخ المصرى المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) فقد صنف كتاباً بعنوان : " النقود الإسلامية " يشتمل على معلومات عن النقود فى الفترة السابقة على الإسلام ، وفى الدول الإسلامية خاصة فى مصر .

وقد ازداد اهتمام المؤرخين فى العصر الحديث بالنقود كمصدر من مصادر البحث فى التاريخ الإسلامى ، حيث نجد بعض الدول الشرقية والغربية قد جمعت بعض العملات الإسلامية وأفردت لها صالات العرض فى مكتباتها ووضعت لها الجداول الخاصة بها ، كذلك عمد المستشرقون إلى التأليف عن النقود الذى أطلقوا عليه : " علم النميات " .

• تاريخ الفنون :

يعنى تاريخ الفن على الخصوص بالأشياء التى لها قيمة فنية. وهناك تعريفات كثيرة للفن ، وخلافات بين الفلاسفة والعلماء حول ماهيته . وقد بسطه بعضهم بأنه ما يخرجه الإنسان من عالم الخيال إلى عالم الحس ليحدث فى النفس إعجاباً أو طرباً أو دهشة أو تأثراً بالعواطف الإنسانية مع الشعور بالجمال.

ويبدو أن البواعث على الإنتاج الفنى مختلفة ومتنوعة منذ أقدم العصـــور ، فقد أراد الإنسان منذ تلك العصور القديمة أن يزخرف الأشياء التى يستعملها فى حياته ليمتع نظره برؤيتها ولأجل أن تروق فى نظر غيره ، كمـا كـان يرسـم المرئيات فى بعض الأحيان ليخلد ذكرها أو ليحظى بإعجـاب بـنى جنسـه أو ليسجل بعض الأحداث كالصيد والحروب . وكان فى رسومه هـــذه يتجـاوز الحدود الضرورية للمسكن والمأكل والمشرب وينشد ما يزين ويمتع نفسه ويعـبر عن مشاعره .

وكان الإنسان البدائى يخشى قوى الطبيعة الثائرة كـالعواصف والرعـد والبرق والزلازل ويعتقد أنها آلهة خفية تسبب له الرعب والمـرض والمصـائب ، فكان السحرة يصنعون التماثيل والتمائم للوقاية من الأمراض ولإتقاء الكـوارث وإبعاد الشياطين . وهكذا كانت المعتقدات الدينية ذات صلة بقيام الفـن منـذ البداية .

وبمرور الزمن وإزدياد حضارة الإنسان ، كان للعقائد الدينية أثر كبـير فى إزدهار الفن ، والدليل على ذلك تشييد المعابد والمدافن وتزيينها بالرسوم ، فضلا عن نحت التماثيل .

وتنقسم الفنون الجميلة إلى قسمين أساسيين : الفنون الشكلية ، والفنـون الحركية أو الفنون الزمنية . أما **الفنون الشكلية** فهى التى ينقـل فيـها الفنـان أشكال المرئيات ويجسمها فيمتع الأنسان برؤيتها كالمبانى والتمـاثيل والصـور والزخارف . وتشمل هذه الفنون العمارة ، والنحت ، والتصويـر ، والفنـون

الزخرفية التي قد تسمى الفنون التطبيقية والفنون الفرعية والفنون الصناعية ، ولكن إصطلاح الفنون الزخرفية أوفق هذه التسميات وأعمها لأنه يشمل كل فروع الفنون الشكلية فتدخل تحته زخرفة المباني بالنحت أو بالألوان أو بمواد مختلفة ، وكذلك أثاث المنزل وأدوات الأكل والشرب والأقمشة والمصنوعات التي يدخل فيها شيء من الزخارف .

أما الفنون الزمنية أو فنون الحركة فهي الفنون التي لا يشعر بها الإنسان إلا بالأذن أي بحاسة السمع وتحتاج إلى مدة من الزمن حتى يتم تأثيرها كالقطعة الموسيقية والقصيدة .

أما الرقص فانه يدرك بالنظر ولكنه يحتاج لزمن لإتمام الخطوات على ايقاعات الموسيقية . وكذلك يتمتع الإنسان بالفن المسرحي بالسمع والبصر وكل فصل من فصول الرواية المسرحية يحتاج إلى مدة من الزمن . أي أن الفنون الزمنية أو فنون الحركة تشمل الموسيقى والرقص والشعر والبلاغة والفصاحة والتمثيل . ولاشك أن دراسة الكتب الأدبية والقصص الشعبية تمدنا بالكثير عن هذه الفنون الزمنية .

أما الفنون الشكلية فذات شأن عظيم في تاريخ المدنية الإسلامية . فإن دراسة العمائر والتحف تلقى الضوء على كثير من الأمور ذات الصلة الوثيقة بالحياة الإقتصادية والإجتماعية ، وتكشف عن مستوى المعيشة وإزدهار الصناعة أو تدهورها ، كما تبين تطور العلاقات بين الأقاليم المختلفة في ديار الإسلام ، وبينها وبين سائر أنحاء العالم .

أما دراسة الأزياء والملابس والأسلحة والحلى القديمة ، فإن ما وصل إلينا لا يكفى ، لذا يجب أن ندرس الرسوم الآدمية فى الصور الموجودة فى المخطوطات وفى الرسوم الموجودة على التحف والرسوم المستقلة حتى نفيد من درس ما فى هذه الصور من رسوم الملابس والأسلحة والحلى .

كما أن دراسة الرنوك الإسلامية - أى الشارات التى كان يتخذها الأمراء رمزاً لهم - على العمائر والتحف تكشف عن كثير من جوانب نظم الفروسية والإقطاع فى العصور الوسطى . لذلك يجد المشتغلون بدراسة الحضارة الإسلامية أن العمائر والتحف والتصاوير من المصادر الأصيلة التى يمكنهم منها إستنباط الكثير من الحقائق فى هذا الميدان ، ولكن لابد من التأكد من أصالة تلك التحف والتصاوير وبعدها عن التزييف وذلك بالإعتماد فى دراستها على آراء الإختصاصيين فى الآثار الإسلامية .

انظمة الحسبة

فصل في تقسيم وجوه الحسبة في تغيير المنكر وبيانها

تغيير المنكر يفتقر إلى علم يحقّقه ، ومعرفة تمنع الإنكار على فاعله ، وإلى صبر ورفق في تولّي ذلك بحسب ممكنه ، وإلى قوة وجزالة فيما لا ينجع الرِّفق في مثله ، وينحصر ذلك كلّه في ثلاثة أصول وهي :

المحتسب ونفس الأحتساب. والمناكر المحتسب فيها.

فمهما آنتفض أصل واحد منها آختل وجه الحسبة ، وفائدة تغيير المنكر ، إذ قد يؤدّي / ذلك إلى منكر مثله ، أو أشدّ ممّا يحتسب فيه ، وسنبيِّن كلّ واحد منها ، ونذكر من شروطه وأحكامه مايكون إن شاء الله أصلاً في آستعماله ، وتنبيهاً على ماوقع من آمتثاله ، والله المسدّد لا ربّ غيره.

الفصل في المحتسب

وشروطه أربعة :

أن يكون مسلمًا. مكلّفاً. عالماً بما يحتسب فيه. قادراً على التّغيير والقيام به.

فأمّا الإسلام ولعلمُ بما يحتسب فيه ، فشرطان في صحّة القيام بالتّغيير ، لا يجوز ولا يتوجّه مع عدمها ، إذ لا يصحُ تغيير الكافر وآحتسابه ، لأنّه ليس من أهله ، إذ التّغيير آنتصارٌ لدين الله تعالى ، والكافر جاحد له ، وآنتصاره لما جحده وكابر عليه محالٌ وآستخفافٌ

بأمر المسلمين ، إذ لعلّه إنّما يريد بذلك التوصّل إلى إذلالهم والتسلط والاستطالة عليهم ، فلايصحّ تمكينه منه لقوله تعالى : (ولَنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنين سبيلا) . وقال صلى الله عليه وسلم : «لن أستعين بمشرك».

وكذلك الجاهل يرجوه القيام بالحسبة والتّغيير ، لا يصحّ قيامه فيما جهل حقيقته من المناكر ، أو جهل مايجب عليه فيه من الإنكار ، فإنّ ذلك مختلف باختلاف المنكر وفاعله والمحتسب عليه ، فلا يستوي إنكار الولد على أبيه ، والعبد على سيّده ، والرعيّة على الأمير ، وما في معنى ذلك مع غيرهم ، إلى نحو ذلك ممّا قد يؤول القيام به إلى ما هو أنكر من الأوّل ، فمن كان يجهل هذه الأشياء ، فلا يجوز قيامه فيما جهل منها ، ويجوز فيها علم وجود الشّرط في ذلك الشيء.

وأمّا الشّرطان الآخران وهما : التّكليف والقدرة على التّغيير ، فهما لإيجاب القيام عمّن دخل فيه الشّرطان الأوّلان ، لأنّ غير المكلّف من صبيٍّ أو مجنونٍ ونحوهما لا يتعيّن عليه خطابٌ ولا يلزمه قيامٌ ، إلاّ أنّ من نهض من الصّبيان إلى حدّ العقل والتّمييز ، وعرف المنكرات ووجه التّغيير ، فتبرع بالحسبة ،فقيامه صحيحٌ ، وأجره على ذلك عند الله جزيلٌ ، وهو إن لم يقم في ذلك غير آثم ، بخلاف المكلّف ، وكذلك غير القادر على التغيير ، إمّا لأنّه يُوقن أو يقوى عنده وقوع المكروه به الذي أباح الله له معه التّرك ، أو لأنّه علم أنّ قيامه ذلك لاينفع ولا يؤثر شيئاً ، فمن كانت هذه سبيله ففرض القيام ساقطٌ معه ، وإنّما على من شاهد ذلك الإنكار بقلبه ، والفرار ماأمكنه عن مشاهدته ، ويصحّ مع ذلك قيامه أن يبرع به باذلاً نفسه لله تعالى في موطن المخافة ، أو قاصداً لإظهار / شعائر الدّين في موطن الإعراض عن احتسابه والإضراب عن الانتفاع به ، لأن في ذكر ذلك والقيام به فائدة أخرى غير زوال المنكر من حيث التّنبيه على حدود الله تعالى ، والإعلان بشعائر الدّين ، والانتقال من دربة اللّسان في التّغيير ، إذ التمالؤ في مثل ذلك على السّكوت لكون القائم بعمله لا ينفع فيه قد يوهم الرّضا بذلك ، ويشتبه على من قّل علمه ودينه التّساهل بمثل ذلك واعتقاد جوازه ، فإذا قام أحدٌ بمثل

هذا متبرّعاً ، صحّ آحتسابه ، وعظم عند الله تعالى أجره ، وهو في سعةٍ من الترك إن شاء الله تعالى ، بخلاف آنخرام الشّرطين الأوّلين ، فإنّ القيام مع عدمهما أو عدم أحدهما باطلٌ لا يصحّ.

فصل

وآختلف هل العدالة شرط في القيام بالحسبة في تغيير المنكر أو لا ؟ فأوجب ذلك قوم ، ورأوا أنّ الفاسق لا يحتسب ، وآحتجّوا على ذلك بأشياء تلزم لظهور الآنفصال عنها ، والصّحيح وجوب ذلك عليه كما قدّمناه ، إذ وجدت الشروط المتقدمة ، وصحّة فعله منه إذا وقع ، أمّا وجوبه عليه ، فلأنّه مكلّف عَلِمَ مُنْكَراً يقدر على تغييره ، فتعيّن عليه القيام به لقوله صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكراً فليُغَيِّره ... الحديث» وليس كونه فاسقاً في غير ذلك ، أو ممّن شأنه فعل ذلك المنكر بعينه ، مخرجه عن خطاب التّغيير فيه على غيره ، لأنّهما فرضان متغايران لا يسقط أحدهما العصيان بترك الآخر ، وأيًّا قام به وأدّى فرضه فيه فقد سقط عنه إثمه ، وذلك أولى من آجتماع الإثمين وآرتكاب المعصيتين.

وأمّا صحّة فعله منه إذا وقع ، فلأنّ المقصود إزالة عين المعصية على طريق حماية الدّين ، فإذا كان ذلك ، فهو آحتسابٌ صحيح ، بخلاف تغيير الكافر ، وأيضاً فلا يوجد معصوم عن جميع المعاصي ، إلاّ من قرّر له ذلك شرْع.

وفي بعض ذلك خلاف.

ويروى عن سعيد بن جبير أنّه قال : إنّ لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر إلاّ من أنكر فيه شيء ، لم يأمر أحد بشيء. وأعجب مالكاً ذلك من قول سعيد.

فصل

وكذلك آختلف هل من شرطه أن يكون مأذونا له في الحسبة من الإمام أو أحد الحكّام ، فرآه بعضهم ، ومنع آحاد الرعيّة من ذلك ، وهذا قولٌ فاسدٌ إذا حمل على إطلاقه وعمومه.

والصحيح أنّ ذلك ليس بشرط ، وأنّ القيام بالتغيير على كلّ من شاهد المنكر واجبٌ على الشروط التي ذكرناها ، بدليل ماتقدّم من عموم آي القرآن وصحيح الآثار ، قال الله تبارك وتعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون على المنكر). وقال صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكراً فليغيّره ... الحديث».

إلاّ أنّ تغيير المنكر ينقسم على أقسام ، فمنها :

التّنبيه والوعظ باللّسان.

ومنها المباشرة في إذهاب عين المنكر باليد ككسر الملاهي ، وجرار الخمر ، ونحو ذلك.

ومنها الإرهاب والتّخويف بالضّرب والقتل وما أشبهه ، ممّا لعلّه يؤدّي إلى قتال وجمع أعوان وفتن وآستطالة على السّلطان. فهذا النّوع خاصّة ينبغي أن يتوقّف عنه من لو يؤذن له فيه خشية ممّا يؤول إليه ويستدعيه من المناكر. فإن دعت إلى ذلك ضرورة يتعقّبها الفوات ، وتعذّر لدن السّلطان. كالقوم يكونون في البادية ، والرّفاق في الطرق ونحو ذلك ، يروم أحدٌ منهم أو فيهم غصباً أو نكاً أو قتلاً. وما أشبه ذلك ممّا لا ينبغي إقراره وإهماله ، فوجب القيام في تغييره ، ودفعه بما أمكن ودعت الحاجة إليه على كلّ حال.

الفصل الثاني

في كيفية الآحتساب ، وحقيقة القيام في الله تعالى غضباً له وآنتصاراً لحدوده وحماية وذبّاً عن محارمه

وأحكامه ثلاثة : حسن التّناول في الحسبة. وفهم مراتب التّغيير. ومعرفة وجوه الكشف عن المنكر.

فصل

في وجه تناول الحسبة

فأما التناول في القيام بتغيير المنكر والاحتساب على فاعله ، فينبغي للقائم فيه تحسين المأخذ ، وتقديم الرفق والتلطف ، فيعلّم من جهل برفق ولين ، وينبّه من جار أو غفل بلطف وتبيين ، حتى يستوي من زل ، ويهتدي من ضلّ ، إذا كان الرفق في ذلك كله مؤثراً ، والوقوع من فاعله نادراً ، أو كان من الجهالة بحيث يعذر ، أو من العزة والظلم بحيث يجور ، فإنّ الرفق في نحو هؤلاء أدعى للقبول ، وأوقع في درك المأمول ، ولا ينبغي له أن يرجع إلى العنف في شيء مهما أمكن الرفق ورجيت منفعته ، ولم يكن داعياً إلى التهاون بالدين ، واستخفاف من أسرف من الفاسقين ، قال الله تعالى (وَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كان آمرا بالمعروف ، فَلْيَكُنْ أَمْرُهُ ذَلِكَ بِمَعْرُوفٍ» . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنّ الله تعالى رفيق يحب الرفق ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على سواه» .

وكذلك فعل صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابيٌ فقام يبولُ في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه ، مه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تزرموه دعوه ، فتركوه حتّى بال . ثم إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : إنّ المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنّما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن ، ثم أمر رجلاً من القوم فجاء بدلو فشنّه عليه» .

وحكى حمّاد بن سلمة : أنّ صلة بن أشيم مرّ عليه رجلٌ قد أسبل إزاره ، فهمّ أصحابه أن يأخذوه بشدّة ، فقال : دعوني أنا أكفيكم ، فقال : يا ابن أخي ، إنّ لي إليك حاجة ، فقال : وماحاجتك ياعمّ ؟ فقال : أحبّ أن ترفع من إزارك ، قال : نعم وكرامة ، فرفع إزاره ، فقال لأصحابه : لو أخذتموه بشدّة لقال : لا ولا كرامة ، ولشتمكم.

وأما إن خيف مع الرِّفق فوات عين المنكر ، أو آتصال الآستطالة على مثله لآستخفاف المقوم عليه وقلّة آلتفاته ومبالاته ، وعلم أنّ الرِّفق لا ينفع في مثل ذلك ، وأمن أن يثير الإغلاظ منكراً أشدَّ من الحاضر ، فينبغي المعالجة بما يقاومه ويصلح به ذلك الأمر من الشدّة والعنف ، وبحسب عظم المنكر ومايليق في مثله ، ويؤدّي إلى إزالة فعله على ما سنبيّنه إن شاء الله تعالى ، قال الله تعالى في صفة القوم يحبّهم ويحبونه ويجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم : ذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء»

فصل في مراتب التّغيير

وأمّا مراتب التّغيير للمنكر ، فمختلفة بحسب الفاعل وفعله ، ويجب فهمها على المحتسب ليضع كلاً منها موضعه ، وهي على خمسة أقسام :

أولهما : التّعريف والبيّنة ، وذلك فيمن يعلم أنّه جهل ما يحقّ عليه ، وإنّما وقع في ذلك المنكر على غرّة من نكرة وجهالة من أمره ، كالعامّي يقع في دقائق الرّبا والبيوع الفاسدة التي قد تخفى ، وكالبدويّ الجافي لا يقيم أركان الصّلاة وشروط العبادات ، فهؤلاء ومن أشبههم ممّن يعذر بالجهالة أو الغفلة يجب تنبيههم على الصواب ، وتعليمهم مواقع السّداد ، مع التلطّف والاستمالة بآلرّفق ، لينشطوا للقبول بالبشر ، ويتلقوا ذلك بالفهم ، فتسرح الفائدةُ ، وتقل الكلفة ، كما أخبر شيخنا الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله المشتهر بآبن أبي درقة رحمه الله قال : كنت مرّة في غرّة الشبّاب ومبادي الطّلب ، فتشاغلت عن إحدى صلاتَيْ العشاء إلى أن شارفت الفوات ، فأتيت عجلا إلى بعض المساجد ، وآعتمدت بعض زواياه ، فصلّيتها مبادراً متجوّزاً في بعض أركانها ، وإذا بعض الشيوخ يسارقني النّظر ، بحيث لم أشعر به ، فلّما أتممت صلاتي ، وهممت بالآنصراف آستدعاني ، فأتيته ، فسألني قليلاً ، ثمّ قال : يابنّي ، رجلٌ تسلّف دراهم إلى وقت ، فلّما حلّ الأجلُ ، والغريم موسرٌ قادرٌ على الأداء ، تهاون بذلك وآستخفّ ، ولم يزل يتراخى به إلى أن آستحق ذمّ التأخير ، ثمّ أتاه بها بعد ذلك ناقصةً ، زُيُوفاً. فجميع بين جنْسَيْ الإساءة في القضاء ، فهل

يكون لهذا حظ في القبول ؟ فما أتمّ كلامه حتّى فهمت مقصده وتعريضه بما فعلت في صلاتي ، فخجلت ، ثمّ قلت له : فهمت ياعمّ فما زاد على أن قال : قم يابنّي بارك الله فيك ، فعُدْتُ لإتمام صلاتي ، وأثّر ذلك عندي خير تأثير.

فهذا النّوع من الرّفق والتلطّف في التعليم بحسب فهم صاحب النّازلة وما يليق به ، أوقع في النفوس وأقرب إلى الإجابة من كثير من العنف والشّدّة.

الثّاني : الوعظ والتّخويف بالله عز وجلّ ، والتّحذير من آستحقاق وعيده ، والتذكّر بشدّة عقابه ، وذلك فيمن علم أنّ شأنه الوقوع في المناكر على علمه بها ، كمُدْمِن شرب الخمر ، والمواظب على الغيبة والنّميمة ، ونحو ذلك من أنواع المعاصي التي لا يجهل تحريمها ، فالواجب تعهّد من آتصف بذلك بالوعظ والتّخويف من الله تعالى ، والتلطّف في إيصال ذلك إليه ، وتذكيره بالله سبحانه وتعالى فيما يحقّ عليه ، فلعلّ الله سبحانه سيقبله بذلك. ويلهمه رشده ، ويبصّره قصده ، قال الله تعالى : (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ المؤمنين).

الثالث : الزّجر والتّقريع باللّسان ، والشّدّة في القول والإنكار ، وذلك فيمن ظهرت منه مبادىء الوقوع في المنكر وهمّ به ، ولم ينفع فيه وعظ ولا نهنهةُ رفقٍ ولا لطفٌ ، فيجب حينئذٍ زجره وردعه بالقول الصّارف له والمرهب عليه ، ممّا يليق في مثل ذلك كقوله : ياجاهل ، ياأحمق ، لئن لم تنته لأوقعنّ بك ، وما أشبه هذا ممّا يصدّق في نوعه ويكون أهلاً لقوله. ولا ينبغي له أن يتعدّى إلى السبّ الفاحش ، والذمّ الذي لايكون من صفة ذلك الفاسق ، فإنّ ذلك إذا فعله كان منكراً ، يجب الآحتساب فيه على المحتسب.

الرابع : التّغيير بمباشرة اليد ، وذلك فيمن رآه يحمل خمْراً ، أو يلبس ثوب حرير ، أو خاتم ذهب ، أو قابضاً على مالٍ مغصوبٍ ينازعه ربّه أو مواقعاً لمعصيةٍ ما ، فمثل هذا إذا أعوزه صرفه عن ذلك المنكر بالزّجر ونحوه ، فواجب عليه بيده ، فيريق الخمر ، وينزع ثوب الحرير ، وخاتم الذّهب عنه ، ويختطف الشيء المغصوب من يده ، فيرده على مالكه ، وما أشبه

ذلك من أنواع السّعي في صرف ذلك المنكر ، وإذهابه ودفعه عن تلك المعصيّة وآستدامتها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رأى مكنكم منكراً فليغيّره بيده» الحديث.

فـرع

إذا لم يمكنه إراقة الخمر إلاّ بأن يكسّر إناءها ، أو يقطع أوْ عيبتها فعل ، ولا ضمان عليه ، وإن أمكنه مع ذلك إبقاء الظّرف ولم يخش تغلّباً عليه ، ولا فوتاً لشيء ، فآفتات بذلك ، ضمن قيمة الظّرف إن كان لمثله قيمة ، وصحّ به آنتفاعٌ في غير (الخمر).

الخامس : التّغيير بالضّرب وإيقاع التّنكيل والعقوبة بالفاعل ، وذلك في حقّ من تلبّس ولم يقدر على دفعه عنه إلا بذلك ، فواجب الوثوب عليه حتّى يزايله ، فإن دعت ضرورة إلى قتاله بالسّلاح وحشد الأعوان ، فذلك أيضاً واجب إذا لم يقلع عن ذلك المنكر إلاّ به. ولكن مثل هذا النّوع قد تقدّم أنّ الأولى رفعه إلى الإمام ، أو إلى أحد الحكام ، ليكون ذلك عن إذنه وبأمره ، لما يتوقّع في نوعه من الفتنة بغير أمر السلطان ، مالم يكن في موضع لا يمكن فيه الآستئذان إلاّ وقد فات فعل ذلك المنكر ، فتجب مبادرته والسعي في صرفه.

تنبيـه

إذا لم (يعلم) بالمنكر حتّى فات ووقع ، أو علم به فلم يقدر على دفعه بشيء من الوجوه الّتي ذكرناها حتّى آنقضى وآنفصل ، فلا يصح القيام في مثل هذا إلاّ بالأدب وإقامة الحدّ عليه بحسب مايتقاضاه منكره ، وذلك أمرٌ يرجع إلى الولاة والحكّام ، ولا يكون لآحاد الرعيّة النّظر فيه ، لأنّ فيه ، لأنّ بابه الأحكام لا التّغيير ، لآستحالة رفع منكر قد آنقضى.

فإن كان ممّا فيه حدٌّ متقررٌ بالشرع كالزّنى وشرب الخمر والسّرقة والقصاص وما أشبه ذلك ، فعلى السّلطان القيام بذلك ، وإمضاء حكم الله تعالى في الفاعل إذا ثبت ذلك عليه.

وإن كان ممّا لا حدّ فيه متعيّن ، كالغصب وفعل الرّبا ، والخلوة بآمرأة أجنبيّة ،

والتّعريض للكشف على النساء في المآتم وعند أبواب الحمّامات ، والمؤلف بين الرّجال والنّساء على الفاحشة ، وبائع الخمر وحاملها ، وصانع آلات اللّهو ، والتّصاوير المحرّمة ، وما أشبه ذلك ، فينبغي معاقبة كلّ واحدٍ من هؤلاء بقدر جريرته ، وبحسب الآجتهاد في نازلته.

فصـــل

في معرفــة وجــوه الكشــف عــن المنــكر

وأمّا وجه تعرف المنكر والكشف عنه ، فيفتقر إلى نظرٍ وآجتهادٍ بحسب قرينة الحال وظواهر الآستدلال ، فالذي يجب أوّلا ترك التّجسُّس والتّعَرُّض للوقوف على ذلك بالمباحثة آبتداءً من غير سببٍ ظاهرٍ ، كآستراق السّمع والتّعريف بما عليه أهل دارٍ أو محلّة من منكرٍ يتوصّل إلى علمه بنغمات الملاهي ، وأصوات السُّكارى ، وآنتشار رائحة الخمر ، وما أشبه ذلك ، فهذا في نفسه حرام ومنكر ، يجب تغييره على فاعله أو مريده ، قال الله تعالى : (ولا تجسّسُوا).

وكذلك لو رأى أحداً معروفاً بالفسق وقد أخفى شيئاً تحت ثوبه ، فلا يجب كشفه ، ليتعرف هل هو خمرٌ ، أو آلة لهو ، أو غير ذلك من أصناف المناكر ، فلعلّه كما ظنّ ، وفي ذلك أذًى للمظنونين ، والله تعالى يقول : (إنّ بعض الظّنّ إثم) ، فترك التعرّض لمن يستتر ولم يظهر عليه شيء من دلائل تلك المعصيّة واجبٌ ، وإن ظنّت به.

فأمّا إن ظهر منه ما يدل على المنكر من غير تجسُّسٍ ولا بحثٍ مبتدأ ، كما لو مرّ على دارٍ ، فسمع أصوات السُّكارى وآلات المنكر ، أو غلب عليها رائحة الخمر ، ونحو ذلك من الاطلاع بغير قصد على ثبوت المنكر لا محالة ، فواجب القيام في ذلك ، والهجوم على مثل هؤلاء ، والوقوف على مادلّ عليه الدّليل من تلك المناكر ، حتّى تزال فاحشتها ، ويرفع نكيرها .فإنّ دلالة ذلك قد ظهرت من غير تجسُّسٍ ولا آرتكاب نهي ، لأنّ الّذي حرّم في الأول التجسس لإزالة المنكر المظهور عليه ، لأنّه واجب بعد الظّهور.

فصل

وكذلك ينبغي للقضاة أو الحكام البحث والكشف عمّا آشتهر ذكره من المناكر ، وعرف بالجملة ظهوره وآنتشاره ، وأنس النّاس به ، كآتخاذ النّساء في السّرور والحزن والمآتم يجتمعن لأنواع الملاهي والمناكر في الدّيار والمحلاّت ، وبعض الشّوارع والحمّامات ، وما أشبه ذلك ، وكذلك الفحص عمّن شهر بالفساد من بيع الخمر ، وجمع الفسّاق ، ومتّخذي الدّيار المعدّة لذلك ، وكالملهين بما لايحل ، وأهل صنائع المنكر ، ونحوهم ممّن يتّصف بإدمان المعاصي في ذلك ، وآرتكاب المحظور بالإعانة ، ومن هو كالآلة لوقوع المنكر على يديه ، ففي مثل هؤلاء يجب آجتهاد الولاة والفحص في ذلك وآرتكابه عنهم ، وتفقد مظانّ ذلك منهم ، وآستعمال الحدّ في ردعهم ، وآستيلاء القهر والإخافة عليهم ، وإذا ظهروا من ذلك على مايوجب العقوبة والتّنكيل فعلوه بهم على أعين النّاس ، ففي ذلك إن شاء الله ردع لظهور المنكر ، وتطهيرٌ لمواضع الفساد ، وإظهار لشعائر الإسلام ، فواجب الآن على الحكّام الآبتداء بالكشف والبحث في مثل هؤلاء لأنّ الشّرّ والفساد قد كثر جداً وآنتشر ، وتحقّق صحّة كون ذلك مشتهراً في المواضع ، فلا ينبغي للقاضي التّهاون به وترك القيام فيه حتّى يرفع إليه ، إذ قد لا يرفعه أحد لما أنس النّاس اليوم من كثرته ، وآعتادوا من ملازمته ، حتّى لا يكاد أحدٌ ينكره ، فإهمال البحث عن ذلك مؤدٍّ إلى استمراره وآستدامته مع قلّة القيام به ، وليس آبتداء البحث في مثل هذا محظوراً من جهة أنه يظنّ من قبيل التجسّس ، بل هذا هو الواجب إن شاء الله تعالى ههنا ، لأنّ البحث والكشف إنّما يكون تجسيساً محظوراً فيمن آستتر ولم يشتهر عنه ذلك بكثرة الظّهور عليه ، أو آتخاذه ذلك المنكر كسباً ودأباً حتى عاد أمره بذلك معلوماً بالإغضاء عن مشتهرات المناكر ، وترك البحث عن قطع موادّها إلى وعيد قوله صلى الله عليه وسلم لما سألته زينب : أنهلك وفينا الصّالحون ؟ ، فقال صلى الله عليه وسلم : «نعم إذا كثر الخبث».

فصل

من آطلع على منكر قد آنقضى ، وفات بالوقوع ، بحيث لا يمكن تغيير الفائت ، إلاّ أنّه يتعلق على فاعله حدّ مشروع كالزّنى وشرب الخمر ، أو عقاب مجتهد من الحكام كمعارضة النّساء وحمل الخمر وما أشبه ذلك (بما آنقضى فعله) آنقطعت مدّته ، (ولم) يعلق به سبب لآستدامة تلك المعصية ، فإن كان فاعلُ ذلك ممّن شأنه التستّر والمراقبة من مشاهدته على تلك الحال ، فلا حرج (على) من رآه وباشر ذلك منه في ترك الشّهادة بذلك عند السّلطان ، بل هو أولى لأنّه ستر عليه ، وذلك مندوب إليه ، وحسنٌ مع ذلك أن يعظه ، ويتقدم إليه من القول بحسب مايليق بالفاعل وفعلته ، على نحو ماقدّمناه.

وإن كان الذي فعل ذلك من شأنه المجاهرة والآنهماك وقلّة المبالاة بمن آطلع عليه ، والإقدام على الآستخفاف والتّهاون بمن شاهده ، فالأولى في مثل هذا إن شاء الله إقامة الشّهادة لله ، ليسترلي عليه من حدود الله تعالى مايدعوه إلى حفظ شعائره ، ويردعه عن الآستهانة بمحارمه ، وتصرّفه عن الإعلان بفسقه والفرق بينهما أنّ من تعرّض بالمجاهرة وآستخف بآطلاع المسلمين على فواحشه ، قد حاول خرم قانون الحقّ وآستباح حمى آداب الشّرع وذلك منكرٌ آخر أفحش ممّا وقع فيه ، فيجب تغييره عليه ، لأنّ آنتهاك معالم الشّرع بإبداء الفواحش وإعلانها كبيرة ، غير مواقعة المعصية نفسها ، فوجب أن ينتهي فيمن فعل إلى حكم قوله صلى الله عليه وسلم : «من أصاب من هذه القاذورة شيئاً ، فليستتر بستر الله ، فإنّه من يبدي لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب الله». فدلّ أمره صلى الله عليه وسلم بالآستتار ، على أنّ المجاهرة بالمعصية معصيةٌ أخرى ، ودلّ قوله صلى الله عليه وسلم «من يبدي لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب الله» ، أنّه لا ينبغي تركه ، بخلاف المستتر بذلك ، فكان القبض عليه هو نفس تغيير منكر المجاهرة وكفّ آنتشارها ، ودفع آستحقاق ما دلّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم : «فإذا عمل المنكر جهاراً آستحقوا العقوبة كلهم».

وليس كذلك من ظهر عليه نادراً بغير آختياره ، فإنه لم يقصد إلى إبداء صفحته ،

اللّهم إلاّ أن يبلغ ذلك إلى الحاكم ويثبت عنده مّما فيه حَدٌّ ، فلا يجوز له تركه بوجهٍ ، ولا يحلّ له العفو عن حدود الله بحالٍ من الأحوالِ ، ولو كان الواقع في ذلك أفضل النّاس وأرفعهم ، فزلّ مرّةً في عمره ، وبادر بالإقلاع والتّوبة ، فلا يغنيه ذلك بعد بلوغه الحاكم من إقامة حدود الله تعالى عليه.

والفرق في ذلك بين الشّاهد والحاكم قوله صلى الله عليه وسلم : «من يبدي لنا صفحة وجهه نقم عليه كتاب الله».

وقوله صلى الله عليه وسلم لما كلّم في أمر المخزوميّة التي سرقت في غزوة الفتح : «أيْ والذي نفسي بيده ، لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها» ، ثمّ أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها ، فهذا تجريح على الحاكم في إسقاط ماظهر عليه من الحدود ، فلا يجوز له فيه عفو أصلاً ، لأنّه حق الله تعالى تعيّن عليه تنفيذه ، وليس كذلك غير الحاكم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لهزال : «يا هزال هلاّ سترته بردائك».

وعلى نحوِ ذلك فعل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. فهذا يدلّ على أنّ الستر على المسلم إذا لم يجاهر بالمعصية ولا آستخفّ بالاّطلاع عليه ، أولى من فضيحته إذا فاتت ، مالم يبلغ الحاكم.

فصل

وأما إن كان المنكر الذي ظهرت عليه مّما يستدام فيه من مواقعه الحرام ، ويتكرّر ذلك المنكر مع التّرك ، كالرجُل يطلق آمرأته ثمّ يقيم معها ، أو يعتق عبده ثمّ يستصحب التمسك برقّه ، وما أشبه ذلك مّما يكون تركه سبباً لبقاء ترك المعصية وآستدامة ثبوت المنكر ، فواجب على من علم ذلك القيام بالشّهادة ، وأداؤها عند من يقبلها من الحكّام ، وسواء آستتر بذلك فاعله ، أو جهر على كلّ حالٍ ، وفي أسرع أوقات الإنكار ، لأنه مستصحب للمنكر بإقامته على آستدامة المعصية والملك ، وتركه أو إهماله إعانة على الآستكثار من المحظور ، فإن أهمل

الشهود ذلك ، ولم يقوموا بتلك الشهادة مع التمكن والقدرة ، فهي جرحة بهم ، وسقوط لعدالتهم ، لما قد توجّه عليهم فتركوه من فرض القيام بتلك الشهادة التي فيها تغيير ذلك المنكر وحسمه ، وقد شاركوا في تلك المعصية إذا لم يفعلوا.

فصل

وينبغي للقاضي إذا خاف أن تتعذّر عليه الإحاطة بحفظ الحوانز والأسواق وشوارع المسلمين ومجتمعاتهم من وقوع المناكر ، وتعرّف ما يعرض في ذلك من النّوازل ، أو خشي أن يتشاغل عن آستيفاء البحث والكشف والنّظر بما يتشابه من أمر الخصوم ونوازل الأحكام ، وأن يختار أمناء عُدُولاً عارفين في ذلك ، يتفقّدون ما جعل إليهم من الحوانز والمواضع ، ويرفعون إليه مايتعذّر عليه النّظر فيه من ذلك ، وإن أفرد لكلّ سوق وحومة أميناً منها ينظر في ذلك فعل ، بحسب آجتهاده ، وحاجة النّاس إلى ذلك ، ووجود القائم به فإنّ ذلك من التّعاون على الخير ، الواجب على كلّ / منهم لقوله تعالى : (وتعاونُوا على البرّ والتّقوى).

الفصل الثالث

في المناكر المحتسب فيها

قد تقدّم القول في بيان تأكيد الوجوب في القيام بتغيير المناكر ، وحماية معالم الشّرع ، وحفظ شعائر الإسلام على الولاة والحكّام ، فإنّه يجب عليه من تفقّد أحوال النّاس ، وتعرف مايكون من المناكر ، والبحث عل مظانّها ، والسعي في حسم موادها ، وقطع علائقها ، وإظهار الترهيب في ذلك ، والتنكيل في العقوبة ، والقهر المانع من التّهاون بها ، والمجاهرة بأسبابها ، ما لا يجب على غيرهم من آحاد الرعيّة ، ونحن ذاكرون في هذا الفصل إن شاء الله تعالى أنموذجا ممّا آعتيد وقوعه ، وكثرت المجاهرة بنوعيه من المناكر المألوفة في هذا الوقت ، لتكون المبادرة مصروفة إلى إزالتها ، والعناية موقوفة على تفقدها وإحالتها ، وتطهير المواضيع ونفوس العوام من ملازمتها ، وأيضاً في الآطلاع على مانرسمه من معتادها

، تنبيهً على ماذكره من أشباهها وأمثالها ، يتقيظ لذلك من علم حدود الشرع ، وسعى في مصالح الخلق ، إذ الإحاطة بجميع محدثات المنكر ، أو محاولة استقصائها محالٌ ، يحق ، لأنه لا يجري على قياس ، ولا يرجع إلى أصل ، فنذكر الأهم ، والله المستعان ، ومنه النصر والإحسان.

المناكر المعتادة في معاهد الصلوات ، ومعالم الديانات

فمن ذلك ماآشتهر كونه ، وعرف بضرورة الأحوال وجوده ، من ترك كثير من النّاس وجمهور العوام القيام بصلاة الفرض التي هي الدّين ، وفصل مابين الكفرة والمؤمنين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بين الرّجل وبين الشرك ، أو قال : الكفر تركُ الصلاة» ، وهذا أهمُّ مايتبغي الآهتمام به ، ويحق على القضاة وسائر الحكّام وآحاد المسلمين القيام فيه ، وبذل الجدِّ والآجتهاد في تفقّد أحوال من ظاهره التّقصير والإهمال ، وعلى الحكامِ موالاة أخذ النّاس بذلك ، والاشتداد على الكافة فيه قبل كلّ شيء من سائر الأحكام.

ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى عماله : إنّ أهمّ أموركم عندي الصّلاة ، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيعُ.

وكذلك يجب عليهم المبالغة في التنكيل والعقوبة لمن تعرف منه الإضاعة والتّفريط وقلة المواظبة ، وحدُّ / ذلك من الضّرب الشّديد إلى السّيف ، وذلك بسبب التّرك القليل والكبير ، والإباية من فعلها ، فهذا يترك حتّى يخرج وقت صلاة واحدة ، ثمّ يقتل في قول كثير من أهل العلم.

وإذا علم أحد من أهل الجفاء (والبداوة) ومن يتوهّم فيه ترك الصّلاة والجهل إقامتها ، فينبغي للحاكم مباحثته ، وينزل إلى سؤاله في ذلك بالرّفق والهون ، حتى يتعرّف هل يحسن القيام بها (وما) لا بدّ من وظائفها من حيث يفهم العاصي عنه ذلك ، لا من حيث سياق الفقهاء وتقاسيمهم ، فإن آطّلع من مساءلته على معرفته بذلك ، كما لو أخبره المسؤول بعدد

ركعات كلّ صلاةٍ ، وما تشتمل عليه الركعة من قراءة وفعل ، وما يراد بتكبيرة الإحرام والتّسليم وما كان مثل هذا فليخلّ عنه ، فإنّ ذلك دليل على إقامة الصلاة ، وإن تحقّق عند آختباره أنه غير عالم بها ، فإن كان لجهل يعذر في مثله ، كما لو كان حديث عهد بالإسلام أو كان الذي جهل مّما يخفى مثله جفاة العوامّ ، وما أشبه ذلك من الأعذار التي يكون لها وجهٌ ، ولا يفهم منه تهاونه ، فينبغي أن يعلّمه ويأمر بتعليمه حتّى يحسن ذلك ، وإن كان جهله لقلّة صلاته وكثرة آستهزائه ، فليحسن أدبه ، ويجتهد في عقوبته ، ثمّ ينظر في تعليمه أيضاً ، فربّما وجد اليوم أشياخ ذوو كبرة ولعلّهم ما صلّوا قطّ ، فما أشق أن يكون اليوم عقوبة هؤلاء إن لم يكن قتل.

وكذلك يجب تعليم من يراه يصلّي ، ولا يحسن أداها ، ولا يعرف إقامة أركانها في الركوع والسجود ونحو ذلك ، فيتعيّن على كلّ مسلم علم هذا أو باشره ، القيام به ما أمكنه ، فإن هو أقرّه بعد علمه فهو آثم ، وأشد ما يتأكّد ذلك على الحكّام كما قدّمناه.

ومن ذلك مايخصّ الرّجل من أهل داره وحشمه وأصاغر بنيه من لدن سبع سنين فصاعداً ، من أخذهم بإقامة الصّلاة ، والمحافظة على أدائها في أوقاتها. وكما يجب من معرفة مفروضاتها ، وتعليمهم مالا تستقلّ إلاّ به ، كأحكام الوضوء والغسل ، ومايوجبهما وينقضهما ، ودخول الوقت ، وإثم الفوات ، وما يتعلّق به صحّة الصّلاة وفسادها ، كلّ ذلك فرضٌ على ذي العيال والأهل ، يجب فيه تعهّده لهم ويشتدّ إثمه ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كُلّكُمْ راعٍ وكُلّكم مسؤول عن رعيته» ، الحديث.

فينبغي الآن للقضاة والحكّام تنبيه النّاس على ذلك ، ووعظهم فيه ، وتذكيرهم ، فإنّه قد علم وتحقّق إغفال الجمهور بل الكافّة تفقد من أحوال أهليهم وعامّة عيالهم ، وصار أعلى مرتبة أهل الدّين والفضل مراعاة أنفسهم وحفظ ذواتهم ، فضاع الأهل والعيال ، فقلّما توجد اليوم آمرأة أو عبدٌ أو وليدةٌ فوق السبع تصلّي إلاّ نادراً ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ومن ذلك إهمال كثير من النّاس وأهل الأسواق والحرف والأجراء شهود صلاة الجمعة. وهي من فروض الأعيان على كلّ رجل مكلّف وغير مريض ولا مسافر، لا يسع أحد من أهلها التخلّف عنها لغير عذر، وقد تمالى كثير من أهل الصّنائع اليوم، والأجراء وغيرهم، على تركها وآطراح حضورها، وساعدهم على ذلك كثير من الخاصّة والأعيان الذين يستعملونهم آستكثارا بعملهم في الوقت المستحقّ لحضور الصّلاة، وربّما كان في هذا النّوع من لا يصلّي ألا، جمعةً ولا غيرها، مادام على شغله، فيجب على الولاة البحث عن هؤلاء، والتّنقيب عمّن عرف عنه ذلك، والآشتداد على فاعله، والمساعدة عليه، وآضطرار الكافّة إلى شهود الجمعة بما يؤدي إليه الاجتهاد، ويقتضيه النّظر والحال إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك إسناد الإمامة في الصّلاة في كثير من المساجد إلى العوام والجهّال، وقد لا يحسنون شروط الإمامة، ولا يعرفون أحكام الصّلاة فيما تصحّ به وتبطل، وربّما وجد فيهم من لا يقيم القراءة لكثرة اللحن وتحريف بعض الحروف، فهولاء ينبغي منعهم من ذلك حتى يتعلّموا، بل يجب منع اللحّان من القراءة، وإن كان وحده في صلاة أو غيرها حتّى يتعلّم إن كان يمكن ذلك فيه، لأنّ تغيير القرآن باللّحن ونحوه منكرٌ، لا يحلّ إقراؤه. وأمّا إن كان لا يقدر على التّعلم لآعوجاج لسانه بعجْمَة أو نحوها ممّا لاتكون في وسعه معه إقامةٌ أصلاً، فليجتهد في تجويد أمّ القرآن وسورة إن أمكنه بحسب وسعه، ويقتصر على ما أحكم من ذلك في صلاته لنفسه إن شاء الله تعالى.

ومن كان لايحسن القراءة، ولا يحفظ شيئاً البتّة، كمبتدىء الإسلام ونحوه، فليصلّ مأموماً إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك قراءة القرآن بالألحان المطربة، والتّرجيع المشبّه بالغناء، الملهي لسامعه عن الخشوع والأعتبار، وتجويد (...) عند مواعظ القرآن، فهذا منكرٌ يجب المنع منه، وتنزيه القرآن عنه، بل الألحان نفسها ممّا ينكر في الشعر، وينبغي التنزّه عن الحضور لها وسماعها، فكيف بآيات الله تعالى ومقدّس كلامه.

فأمّا إيـ ده على التّجويد والصّوت الحسن فمرغّب فيه ، لأنه من أحكام التّلاوة ، وفيه من التّشويق إلى الخير ، والتّذكير بالله تعالى أجمل موقع للقلوب الخالصة للذكر. فقد قال عمر بن الخطاب لأبي موسى رضي الله عنهما : ذكرنا لحسن صوته بالقرآن ، وتجويده لقراءته.

ومن ذلك حضور بعض النّساء المتوفّى أمرهنّ كالشّابات المتلنات لها ، اللّتي تتوقّع الفتنة مساجد الجماعات ، وفي ذلك ضررٌ كثيرٌ ، وفساد كبيرٌ ، وإذا أدّى حضورهنّ إلى هذا ، فهو منكر يجب قطعه ، ومنعهنّ المسجد لأجله. فقد منعتهنّ عائشة رضي الله عنها من دون هذا فقيل لها : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنعهنّ من الجمعات ، فقالت : لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأحدث النّساء بعده لمنعهنّ ، فأين زمانها رضي الله عنها حين قالت ذلك من هذا الزّمان ، وآنتشار البدع والحدثان ، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

فصل

ومن ذلك ماقد كثر الآن وآنتشر حتّى عمت به البلوى ، وتلاعب قوم فيه لفاسد الفتوى ، كالحلف بالطّلاق ، والأيمان اللازمة ، وكتطليق الرّجل آمرأته ثلاثاً في كلمة واحدة مؤثراً لذلك ، وكلّه منكر وتحريف لسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتغيير لشعائر الدّين يجب منعه في الآبتداء ، ويلزم جميعه إذا وقع على كلّ حال.

فأمّا الحلف بالطّلاق والأيمان اللاّزمة أو عتق ، فآرتكاب لنهيه صلى الله عليه وسلم إذ قال : «لا تحلفوا بالطّلاق ولا بالعتاق ، فإنّها من أيمان الفسّاق».

وقال صلى الله عليه وسلم «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت». وفيه مع ذلك تعريض للوقوع في منكر آخر ، وهو أنّ الحالف بالطّلاق إذا حنث فقد لزمه الطّلاق. وقال الله تعالى : (ياأيها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود). وهذا عقد على نفسه . طلاقاً بشرط ، فوجب مع وجوده ، فإذا وجب فإنّما يقع عليه حين الحنث ، وربّما كان في حال حيض المرأة ، أو دم نفاسها ، أو في طهر قد مسّ فيه. وهذه الأحوال لا يجوز آبتداء الطّلاق فيها ، ولا تعتمد

إيقاعه ، فكذلك لا ينبغي له التعرّض للوقوع فيما يحرم عليه ، وهذا كلّه إذا كان الحالف يجتنب الحنث ويتوقّاه ، ويعلم محافظته على حدود الله تعالى ، كما قال م لرا - وأبن الماجشون : من أعتاد الحلف بالطّلاق فذلك جرحةٌ فيه ، وإن لم يعلم له حنث فيه والعلّة في ذلك ما قدّمناه من آرتكاب النّهي ، والتعرض لما لايجوز.

فأمّا من يتّهم بإخفاء الحنث في ذلك ، والبقاء على حكم الزّنى ، فهو في حقّه أشدّ وأدهى ، فينبغي ويجب على الحاكم الأشتداد في ذلك ، والتّجريح على من عرف بالحلف به ، والعقوبة له بما يستحقه على حسب وقوعه منه في إكثاره وإقلاعه ، ومايعرف من توقّيه وآستسهاله ، فقد روى زياد عن مالك : أنّه يؤدّب من حلف بالطّلاق.

وأمّا تطليق الرّجل آمرأته ثلاثاً في كلمة واحدة ، فمنكر يجب توقّي فعله آبتداءً ، ويلزم إذا وقع. قال الله تعالى : (يا أيّها النّبيُّ إذا طلّقتم النّساء فطلّقوهنّ لعدّتهنّ) إلى قوله : (وتلك حدود الله ومن يتعدّى حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدري لعلّ اللهَ يحدث بعد ذلك أمراً قيل : يعني الرّجعة ، فأمر تعالى بالطّلاق المشروع وهو واحدة ، فالثّلاث في كلمة تعدٍ لحدوده تعالى ، وظلم من فاعله ، وهو مع ذلك لازم بما دلّ عليه في الآية قوله تعالى : (لاتدري لعلّ الله يحدثُ بعد ذلك أمراً) . فكان المتلقى من عموم ذلك أنّ من تعدّى ما حدّ الله له من طلاق السنّة فطلّق ثلاثاً ، فقد سدّ على نفسه باب الأرتجاع ، إن حدثت له نيّة في ذلك بما لزمه من طلاق الثّلاث ، لأنه لو لم يلزم لما حذّر فوات الرّجعة بقوله تعالى : (لا تدري لعلّ الله يحدثُ بعد ذلك أمراً) . والتّطويل في الآستدلال على ذلك موجود في كتب الفقهاء وعليه جميعهم ، وكافّة أهل العلم ، لا يخالف في ذلك أحد ، إلاّ من لا يتعدّ بخلافه.

وكثيراً ما يقع النّاس اليوم في التّساهل في ذلك ، ويطلب الفتوى أن تحز في واحدة ، وهذا من أمرهم أنكرُ وأشد بلاءً من الأوّل ، فينبغي للحاكم حسم ذلك كلّه بمنع النّاس آبتداءً من آستعمال لفظ الثّلاث ، والآشتداد عليهم في قصده ، وإن أدّى الآجتهاد إلى أدب فاعله ، بحسب مايليق بمثله فحسنٌ.

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه أخبر عن رجل طلّق آمرأته ثلاثاً جميعاً ، فقام غضبان ، فقال : «أيلعب بكتاب / الله وأنا بين أظهركم؟» .

وكان عليّ بن أبي طالب وعمر آبن الخطاب رضي الله عنهما يعاقبان الذي يطلّق ثلاثاً في كلمة. وهو قول مالك.

والذي ينبغي من عقوبة من يطلب الفتوى في ذلك ، أو أفتى بحله في واحدة ، أشدّ وأبلغ في التّنكيل والرّدع الزّاجر لأمثاله ، لأنّ هؤلاء أهل الوسوسة والتشغيب على الضعفاء ، فواجب تفقد مثل هذا ، وإزالته من نفوس العوامّ ، فهذا اليوم فاشٍ ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

المنكرات المعتادة في الشّوارع والمحلات

من ذلك آسترسال السّكارى في مخالطة النّاس ، والآستطالة بآثار السكر من العبث والهجر ، ومأشبه ذلك من منكر أحوالهم ، وكذلك غيرهم من أصناف الفسّاق والمجاهرين بأنواع المناكر ، كآسترسال النّساء حالتي السّرور والحزن في الإعلان بأنواع الملاهي البادية ، وإظهارها على الأصوات العالية في أسراب يتهادين على تلك الحال من موضع إلى آخر ويتعارفنه بينهنّ بالزّحف ، وربّما اجتمع إليهن الرجال للنظر والتعرض ونحو ذلك ، فواجب مهما عثر على شيء من ذلك القبض على فاعله ، وإبلاغ العقوبة فيه من مثله ، إلاّ أنّه ينبغي من جميل الأخذ فيما آعتاد النّساء من ذلك ، أن يتقدّم الحاكم إلى النّاس في مثله ، بالإعلان بالنّداء وإشهار العقوبة ، ليتسامع النّساء بذلك فيجتنبنه ، ويكنّ على حذر من الوقوع بهنّ ، فيزعهنّ وازع الخوف ، فمثل هذا واجب قبل القبض عليهنّ ، لأنّ النّاس قد آعتادوا ترك القيام فيه والإنكار ، فإغفالهم داع إلى أخذ النّساء على حال غرّة ، وقد يكون في ترك ذلك بعض الفتنة ، وضدّه كثير من الأماثل والمستترات اللاتي لو تحقّقن ذلك ما أقدمن عليه ، أو لمنعهنّ منه أولياؤهنّ ، ولما تساهل فيه من عادته التّساهل بحرمات الله ما لم يزعه قهر السّلطان.

فينبغي تفقّد مثل هذه الأنواع في الشوارع والمحلّات وحيث يبدو أثر المجاهرة به ، تفقداً كافئاً لأهله ، ورادعاً عن مثله ، يعظّم الله به الأجر ، ويدرأ به علائق الشرّ.

ومن ذلك ما اشتهر عن قوم بأعيانهم من منكر عرفوا به ونسبوا إليه ، كمتّخذي الملاهي وأنواع الغناء المحرّم والآلات والزّمر صناعةً وحرفةً يكتسبون بها ، ويستأجرون عليها عند السّرور والحزن مثل الزفّانين والمغنين وسائر الملهين بما لا يحلّ لهم ، فهم أعوان الشّياطين في تحريك النّفوس لكلّ شرّ ، وتوثيب أهل / المعاصي على كلّ نكرٍ ، فينبغي للقاضي ابتداء البحث والكشف عمّن شهر بذلك وارتسم به ، والقبض عمّن وجد منهم ، وإبلاغ الزّجر فيهم ، والوعيد إلى ما يرجى به توبة من يغلب على الظنّ إنابته ، ويعاقب في كفّ هذا الصّنف من الرّجال والنّساء ، وتفقد حالهم أبداً ، فهم منشأ الفتنة ، ومثار أسباب الفساد.

ومن ذلك تعرّض الفسّاق وأهل الشرّ والدّعارة لحرم المسلمين وأعراضهم ، باتخاذهم المجالس على قوارع الطّرق لأذى المارّين من المسلمين ، إمّا بإطلاق القول فيهم من الغيبة ونشر العيوب ، والهجن في المنطق. وإمّا بالتعرّض للنّساء ، والكشف عن عوراتهنّ ، والاطّلاع على محارمهنّ بالجلوس في مظانّ ذلك من أبواب الحمّامات ، ومواضع تكررهنّ ، طلباً لمخاتلة الكشف عليهنّ ، واستمالتهنّ بالتّعريض ، والمخالسة بالكلام ، وما أشبه ذلك من صنوف المنكر ، فواجب فيمن عرف بمثل هذا المبالغة في نهيه وزجره ، والعنف عليه ، والعقوبة إن كان لذلك وجه ، ويمنع هؤلاء الصّنف ومن يتّهم بمثله من اتخاذ المجالس في مثل طرق المسلمين ، ويستظهر عليهم بالوعيد الصّادق والقهر المانع.

ومن ذلك الدّيار المعروفة بالفساد وإلف المعاصي ، كبيع الخمر ، والجمع بين الفسّاق ونحو ذلك ، فما عرف منها بهذا وجب البحث عن سكّانه ، ومن يتّهم بذلك من أهلها ، واجتهد في تنكيله وعقوبته بما ثبت عليه من ذلك ، ثمّ إن أمنت عودته وإلاّ كلف الانتقال والجلاء عن موضعه الذي عرف فيه بالشرّ ، واعتيد غشيانه لذلك ، وجلب إليها أهل الصّلاح والخيرة ، ففي مثل هذا حسمٌ لمادة هذا المنكر إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك تبرّج النّساء المتصرّفات بأنواع الزّينة البادية ، وأسباب التجمّل الظّاهرة على حال آختيال في المشي ، وآستعمال منتشر الطّيب ، وآستظهار مايستدعي الفتنة ، فمثل هؤلاء ينبغي منعهنّ من التّصرف على هذه الحالة.

وكذلك يجب منع النّساء فيما بينهنّ (في) المآتم والحمّامات ونحوها من الأسترسال في إظهار ما يخفى من محاسنهنّ ومصون أجسامهنّ ، ومايدعو إلى آطّلاع بعضهنّ على ما لا يحلّ لها من الأخرى ، فإنّ المرأة أكثر محاسنها وخفايا جسمها ، يحكم له بحكم العورة ، فيجب ستره عن النّساء ، كما يجب عن الرّجال.

ومن ذلك آجتماعهنّ في الجبّانات والمواضع التي تتّخذنها مجالس للتنزّه / على من يمرّ عليهنّ من شبّان الرّجال ، وقد يعارضهنّ بتلك الحالة كثير من الفسّاق ، وربّما جلبهم على المرور عليهنّ ما آعتيد من آجتماعهنّ ، وعرف من أغراضهنّ ، وقد يعمدنّ إلى نصب الأخبية على الجبّانات تباهياً وزعماً أن تستتر من تطيل الجلوس منهنّ ، وهذا أدعى إلى الشهرة والشرّ ، وأشدّ لصرف أعين الفسّاق وقلوبهم إلى من فيها ، مع ما يتوقع من جرأة من لايتّقي الله تعالى على مرافقة المعاصي بها ، لآستتار الكائن بها عن كثير من الآطلاع عليه ، فهذا كلّه من المناكر التي يجب الآشتداد عليها ، والمنع منها بحول الله تعالى.

وكذلك آجتماعهنّ في بعض الأسواق التي يضطرون إليها ، كسوق الغزل ونحوه ، وربّما خالطهنّ الرّجال وسفلة السماسرة ، وحادثوهنّ وتمازحوا بما لا يحلّ ، وذلك منكرٌ ظاهرٌ ، ومدعاةٌ إلى الشرّ ، وآرتكاب محارم الله تعالى ، فينبغي لآظطرارهنّ إلى ذلك أن يقدّم هناك أمناء ويختار ثقات السماسرة ومستّورهم ، ويمنع من كان متّهماً من التصرف لهنّ ، ويعيّن للنّساء موضع مستترٌ يخصّهنّ للجلوس في قضاء ما يحتجن إليه من ذلك ، بحيث لا يخالطهنّ فيه من يجتاز أو ينصرف من الرّجال.

ومن ذلك آتخاذ بعض النّاس مايؤول إلى أذى المسلمين ، والتّضييق في الشّوارع عليهم

كتكادس الرحاضات المستخرجة من سُروب المحلّة وقنوات تلك الحومة ، وتركها كذلك في المواضع الضيّقة بحيث يتنجّس المارُّ ، وقد يقع فيها الصّبيان ، والماشي ليلاً ، وربّما كان المطر ومال بعض ذلك مع الماء وخالط كثيراً من طرقات المسلمين ، فعظمت المضرَّة ، وآشتدّت المصيبة.

وكذلك مايكون في بعض السّطوح من قطر ميازيب تجري بغسالة ونجاسةٍ في موضعٍ ضيّقٍ ، لا يكاد المارُّ يسلم من شرارها.

وكذلك آتخاذ مرابط الدوابِّ على الطرق ، وبحيث ينال المارّين من (ضيق) الموضع بها وتعذّر الجواز ، وروع كثير من النّاس مضرّة ظاهرة ، وربّما عاد تنجيسهم وتلويث ما يكون من أرواثِها وأبوالِها.

وكذلك آتخاذ الكلاب العَادية في الحوماتِ ، وعلى أبواب الدّيار ، فقد تعْدُو على كثيرٍ ، ويراع لها الجمّ الغفير.

وكذلك مخالطة النّاس وآزدحامهم ، إذ لا يتّسع ذلك ، كالأسواق وضيق الأزقّة ، فقد يفضي إلى أذى المسلمين في تخريق أثوابهم وتلويثها ، وتكليفهم المشقّة في التحرّز منها.

فجميع ماذكرناه من هذه الأصناف / التي شأنها الإباحة في الأبتداء ، لولا ما يعترضها من أذيّة المسلمين التي نبّهنا عليها ، فواجب أن يمنع على الصّفة التي تؤذي ، لأنّه حينئذ منكر يجب تغييره ، والتقدم إلى النّاس في آجتنابه.

وأمّا إن أمن الأذى أو خفّ ، كما لو جمعت الرّحاضة بقدر ما ينقل من غير تراخ يكثر ، أو أوقف رجل دابتّه على الطّريق بقدر ما يركب أو ينزل ، أو يشدّ عليها حملاً أو يضعه ، أو لو مرَّ رجلٌ يباح له آتخاذ الكلاب بكلب موثوق في يده ، أو ضمّ صاحب الشّوك أو الحطب أطرافه وشدَّها ، بحيث لا تؤذي في الغالب ، أو مرَّ بها في المواضع الواسعة التي يمكن

ومربع ، وكان الموحدون الفاتحون لها قد اتخذوا في قصبتهم بداخل اشبيلية جامعاً صغيراً لصلاتهم في أيامهم وجمعهم ، فضاق عند استيطانهم عنهم لتناسلهم وترادف وفود الموحدين إليهم بالعساكر ، وكان أيضاً جامع مدينة اشبيلية المعروفة بجامع العُدَبّس قد ضاق باهلها ، فيصلون في رحابه وافنيته ، وفي جوانب الاسواق المتصلة به فيبعد عنهم التكبير بالفريضة ، فربما فسدت صلاتهم ، ولم تمتد قط فيما سلف من الأمنة همم ملوكهم وأمرائهم في السيِّرات إلى توسعته والزِّيادة فيه ، للذي كانوا عليه عاكفين من تهالكهم في الإمارة وهويهم في ضلال الفتنة بينهم ، واهمال المسلمين بغير حماية ، لعمارة في دار قراره إلى أن جمع الله تعالى الإسلام بهذا الأمر العزيز بالتَّوحيد بعد فترة ، وبهذا الخليفة الامام أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهم الذي سمت به الخلافة ، وأنافت به المعالم والديانة أعظم إنافة ووصل لنصر جزيرة الأندلس بعساكره المنصورة ، فحاز الذخر والأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس فأسسه من الماء بالآجر والجيار والحصى والأحجار ، على أعظم البناء والاقتدار ، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطاته تحت الأرض أطول مما فوق الأرض ، وجمع الفعلة بكثرة الرجال ، والخدام واحضار الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العدوة ، بما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله ، فأعلى بنيته وصقل صفحته بالاتقان لشييده وتوثيقه ، وأنفذ أمره العالي ببنائه في شهر رمضان من سنة سبع وستين وخمس مائة المؤرخة ، لم يرفع البناء عنه قط في فصل من فصول السِّنين مدة إقامته بإشبيلية إلى أن كمل بالتسقيف ، وجاء في أبهى المنظر الشريف ، وأعجز في بنائه من تقدمه ، وبقي في ميزانه ذخيرةٌ رحمة له [332] مقدمة ، قارب به جامع قرطبة في السعة ، وليس في الأندلس جامع على قدْره وسعته ، وعدد بلاطاته ... وكان الناظر على البنائين والعرفاء العريف أحمد بن باسه ، وصاحب تقييد الإنفاق أبو داود يلول بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ومشرفه على الأعمال ، ومن الحفاظ على هذا البناء من أهل إشبيلية أبو بكر بن زهر ، وأبو بكر اليناقي ، ثم شركهم في النظر عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد العنسي الغرناطي فظهرت على كتابه وأصحابه خيانة ، فعزل وعزلوا واستبدلوا ، ورجع النظر إلى أبي داود

التحرّز منها ، ولا يتعذّر العدول عنها ، فكلّ ذلك على هذه الصّفة مباحٌ ، لأنّ للنّاس ضرورة إلى مثل ذلك ، فلا يصحّ منعه على الإطلاق ، إلاّ بشرط وجود الأذى. أو غلبة وقوعه لعرف العادة.

ومن ذلك ما يستخفه بعض النّاس من أذى البهائم ، والعنف على الدوابّ ، كإثقالها بالأحمال التي لا يستقلّ بها ، وإرهاقها في سرعة المشي بالضرب والزّجر الشّديد ، حتى يستخرج منها فوق وسعها ، مثلما اعتيد فعله الآن من حمّالي الزّرع ، ونقالّي الحجارة والجصّ ، والخدمة من الزمّالين وغيرهم ، فهذا من المناكر التي يجب الاحتساب فيها ، ومنعهم منها ، وصرفهم على كلّ حالٍ عنها ، وسواء كانت الدابّة لمُثْقلها أو لغيره ، ولا حجّة له في كونها ملكه ، فإنّ الحيوان محترم ، وحفظ النّفوس واجب ، حتّى لو اتفق أن يرى أحد وقد حمّل نفسه فوق ما يطيق من ذلك ، وعنّف عنها عنفاً يظهر منه سوء نظره لها ، لمنع من ذلك ، وقهر على إزالته ، وجُوهدَ عليه إن أباه.

«تنبيه الحكام» لابن المناصف دار التركي للنشر. تونس 1988 : ص 314 - 341

خبر ابتداء بناء الجامع الكبير الجديد باشبيلية ومساق الخبر على [330] اختلاف السنين.

وفي هذه السنة من شهر رمضان ابتدأ أمير المؤمنين باختطاط موضع هذا الجامع العتيق الانيق ، فهدمت الديار في داخل القصبة له ، وحضر على ذلك شيخ العرفاء أحمد بن باسة وأصحابه العرفاء البناؤون من أهل إشبيلية ، وجميع عرفاء أهل الاندلس ، ومعهم عرفاء البنائين من أهل حضرة مراكش ومدينة فاس وأهل العدوة ، فاجتمع باشبيلية منهم ومن أصناف النجارين والنشارين الفعلة لأصناف البناء أعداد ، من كل صنف صناعٌ مهرة في كل فن من الأعمال أفراد وكان الذي دعا أمير المؤمنين لبنائه ما خصصه الله به من الدين والورع ، وأن يخص اشبيلية بالتمصير والتسكين بأشرف مرأى ومسمع ، ولإن كان قد قطنها في مصيف

الفهرس